رسائل الى الشباب المسلم
(٤)

مواقف تاريخية حاسمة من حضارة التوحيد

أنور الجندي

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـد

إلى شباب الإسلام :

أهدى صورة سريعة موجزة من حضارة التوحيد التى صنعها (القرآن الكريم) وبناها (محمد رسول الله) تحت اسم (لا إله إلا الله) فنمت وترعرت واتسعت آفاقها حتى عمت كل الآفاق ، وقدمت للبشرية ذلك الضوء الكاشف الذى حررها من عبودية الأوثان وعبودية الإنسان للإنسان ودفعها إلى بناء المدنية وإنشاء الحضارة ، وكشف لها المنهج العلمى التجريبى ، ومن خلال كتب التاريخ والتراث ، وتاريخ الأبطال فى ميادين العلم والحكم والجهاد تنكشف هذه الصور الرائعة ، وهذه المواقف الخالدة ، وتلك الكلمات السمحة المعبرة لتعطى صورة رائعة لهذه الأمة ، ولهذه الحضارة .

ما أحوجنا أن نستروح نسائمها اليوم ونحن نعيد بناء الحياة من جديد ، ليرى شبابنا كيف كانت أمته فى ميدان العلم والحياة ، وفى مجال الاجتماع والسياسة والتربية ، أمة قامت دعائم فكرها على التوحيد الخالص وقد جعلت وجهتها بناء المجتمع الربانى الكريم ، وجعلت سعيها فى الحياة لا من أجل مطمع ، أو جاه ، أو هوى ، أو تسلط على الأمم والناس ، ولكن من أجل إشاعة روح الإيمان ، والبر والرحمة والسماحة والإخاء الإنسانى .

وقد قدم تاريخ هذه الأمة صفحات مجيدة وبطولات حية ، وصورا ما تزال تبهر الناظر إليها وتوحى بما ينتظر هذه الأمة من مجد مجدد إن هى التمست تلك القيم التى قدمها الإسلام وعرفها المسلمون الأول وساروا عليها ، فأسعدوا البشرية كلها وقدموا لها ترياق أزماتها وعلاج أدوائها وضياء أيامها ولياليها .

فما أحوج المسلمين اليوم أن يلتمسوا تراثهم وميراثهم ويأخذوا كتابهم بقوة ، وما أحوج البشرية إلى أن يستطيع المسلمون تقديم هذا الضياء كله للإنسانية . شريعة عادلة وخلقا كريما وأخوة عالمية وسماحة لا تعرف التعصب ولا العنصرية ولا الإقليمية ، ولا تعرف الرياء ، أو الغدر ،ولا تجعل العلم فى خدمة المطامع والأهواء بل فى خدمة الإنسان والإنسانية .

وفى هذه الصور المتوالية نجد النفس المسلمة سامقة عالية ، قد تحررت من الداخل والزائف والوافد ، واهتدت إلى ربها وإلى الحق وإلى الفطرة ، وهى صور ليست عسيرة التحقيق أن تعود مرة إلى حياة المسلمين ، إذا ما التمسوا مصادرهم ومنابعهم الأصلية وتحرروا من عقائد الآخرين ومذاهب الأمية الضالة المضلة .

وبعد فهذه صور ليست مثالية منتقاة ، ولكنها صور واقعية تكررت وثبتت ، لأن مصدرها هو الإيمان الحق ، وهى قادرة على أن تعود وتتكرر فى هذا العصر إذا ما التمسنا مصادرنا من القرآن والسنة .

إليك أيها الشباب المسلم فى هذا العصر أقدم صورة من حضارة أمتك ودينك : حضارة التوحيد . أمل البشرية الباق على الزمن .

المؤلف

الفصل الأول
لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسَنة

لا يمكن فهم عظمة الإسلام وسماحته ويسره ومدى ما قدم للبشرية من ضياء . وحرية وإيمان . إلا باستعراض تلك الصور الزاهية التى تكشف عن ذلك الخلق الرفيع الذى بنى رسول الله على أساسه مجتمع الأمة الإسلامية الأول . وسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشمائله وحياته وأسلوبه فى التعامل مع اتباعه وأصحابه وأعدائه . واضحة فى عشرات من المواقف والأحداث . التى اخترنا منها هذه النماذج . كذلك فهى تكشف عن حياته الخاصة صلى الله عليه وسلم فى بيته . وصفة طعامه وشرابه وملبسه وفراشه وكيف صنع الإسلام هذه الأساليب الرفيعة فى التعامل والحديث على نحو لا يمكن أن يفهم ويستوعب إلا باستعراض هذه الوقائع .

ضيف أبى أيوب :

عندما قدم رسول الله إلى المدينة نزل فى دار أبى أيوب الأنصارى . يقول أبو أيوب :

لما نزل رسول الله فى بيتى نزل فى الأدنى وأنا وأم أيوب فى الأعلى ،فقلت: يا رسول الله :

بأبى أنت وأمى ، إنى لأكره : أن أكون فوقك وتكون تحتى . فاظهر أنت فكن فى العلو ، وننزل نحن فنكون فى السفل .

قال النبى : يا أبا أيوب ، ارفق بنا وبمن يغشانا أن نكون فى أسفل البيت .

يقول أبو أيوب :

ولقد انكسر لنا جب فيه ماء ، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ، ما لنا لحاف غيرها ، ننشف بها الماء خوفا من أن يقطر على رسول الله منه شيء فيؤذيه .

كان النبى صلى الله عليه وسلم تنام عيناه ولا ينام قلبه ، وإذا نام لم يوقظوه حتى يكون هو الذى يستيقظ وكان يرى فى الحرب فيريد جهة ويقصد غيرها .

على رسلكما : هذه صفية :

عن « صفية » زوج النبى صلى الله عليه وسلم أنها جاءت إلى رسول الله تزوره فى اعتكافه بالمسجد فى العشر الأواخر من رمضان فتحدثت عنده ساعة ، ثم قامت تنصرف فمضى النبى معها ، حتى إذا بلغت باب المسجد عند باب أم سلمة ، إذ مر رجلان من الأنصار فسلما على رسول الله .

فقال لهما النبى : على رسلكما ، هذه صفية بنت حيى .

فقالا : سبحان الله يا رسول الله .

وكبر عليهما ذلك .

فقال النبى : إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئا .

قام النساء حين رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من « أحد » يسألن عن أهلهن ، فلم يخبرن حتى أتين رسول الله ، فلا تسأله واحدة إلا أخبرها ، فجاءته حمنة بنت جحش : فقال : يا حمنة احتسبى أخاك عبد الله بن جحش ، قالت : إنا للّه وإنا إليه راجعون ، رحمه الله وغفر له .

ثم قال : يا حمنة احتسبى خالك حمزة بن عبد المطلب : قالت : إنا لله وإنا اليه راجعون ، ثم قال : يا حمنة احتسبى زوجك مصعب بن عمير . فقالت:يا حرباه فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن للمرأة لشعبة من الرجل ما هى له فى شىء .

اللهم حوالينا ولا علينا :

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال

إن رجلا دخل يوم الجمعة من باب كان وجاه المنبر ورسول الله قائم فقال :

قال : فرفع رسول الله يديه فقال :

يا رسول ، هلكت المواشى ، وانقطع السيل ، فادع الله يغيثنا .

اللهم أسقنا ، اللهم أسقنا ، اللهم أسقنا .

قال أنس : فلا والله ما نرى فى السماء من سحاب ولا قزعة ولا شيئا ، وما بيننا وبين سلع (جبل خارج مكة) من بيت ولا دار .

قال : فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس ، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت .

قال : والله ما رأينا الشمس ستا (أى ستة أيام) ثم دخل رجل من ذلك الباب يوم الجمعة التالية ، ورسول الله قائم يخطب فاستقبله قائما .

فقال : يا رسول الله : هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يمسكها .

قال : فرفع رسول الله يديه ثم قال :

اللهم حوالينا ولا علينا ، اللهم على الآكام والجبال والظراب والأودية ، ومنابت الشجر .

قال : فانقطع المطر ، وخرجنا نمشى فى الشمس .

حكم اختارته عائشة :

قالت عائشة رضى الله عنها :

كان بينى وبين رسول الله كلام فقال :

من ترضين أن يكون بينى وبينك ، أترضين بأبى عبيدة بن الجراح .

قالت : لا ، ذلك رجل هين لين يقضى لك

قال : أترضين بأبيك ؟ قالت : نعم .

فلما جاء أبو بكر قال رسول الله : اقصصى

قالت : بل اقصص أنت . فقال : هى كذا وكذا

قالت عائشة : « أقصد »

فرفع أبو بكر يده فلطمها وقال :

أتقولين يا بنت أم رومان لرسول الله : أقصد . من يقصد إذا لم يقصد رسول الله .

فجعل الدم يسيل من أنفى ، ورسول الله يحجز بيننا . ويقول لأبى بكر : إنا لم نرد منك هذا

وجعل يغسل الدم من ثيابى ويقول :

أرأيت كيف أنقذتك من الرجل ..

مجلس رسول الله :

قال سفيان بن وكيع :

كان رسول الله فى جلساته دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب ولا عياب

قد ترك نفسه من ثلاث : الرياء ، والإكثار ، وما لا يعنيه . وترك الناس من ثلاث كان لا يذم أحدا ولا يعيره .

وإذا تكلم أطرق جلساؤه ، كأنما على رءوسهم الطير .

وإذا سكت تكلموا ، لا يتنازعون عنده الحديث .

من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ ، حديثهم حديث أولهم ، يضحك مما يضحكون فيه ، ويعجب مما يعجبون منه ، ويصبر للغريب على الجفوة فى المنطق ، ويقول :

إذا رأيتم صاحب الحاجة فارفدوه

ولا يطلب الثناء إلا من مكافئ ، ولا يقطع على أحد حديثه .

عوتب عبد الله بن جعفر لكثرة عطائه وسخائه فقال :

إن الله سبحانه وتعالى عودنى عادة وعودت خلقه عادة ، فأخاف أن أقطع العادة فتنقطع العادة .

قد أجرت العاص بن الربيع :

عندما عاد العاص بن الربيع زوج زينب بنت النبى إلى المدينة من الشام وكان فى تجارة ولم يكن قد أسلم بعد الهجرة . اعتقله المسلمون وذهبت زينب إلى باب المسجد فى صلاة الصبح ثم صاحت بملء صوتها :

« أيها الناس : إنى قد أجرت العاص بن الربيع » .

فلما سلم النبى من صلاته قال :

أيها الناس هل سمعتم ما سمعت قالوا : نعم

قال : أما والذى نفس محمد بيده ما علمت بشىء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم وإنه ليجير على المسلمين أدناهم وقد أجرنا من أجارت .

ثم انصرف النبي فدخل على ابنته وعندها ابن خالها وزوجها ، فانتحى بها ناحية وقال :

أى بنية : أكرمى مثواه ، ولا يخلصن إليك ، فإنك لا تحلين له .

وعندما أرسلت زينب قلادة خديجةلتفتديه بها ، فلما رآها رق لها وقال فى حنان :

إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا لها مالها فافعلوا .

صفة رسول الله :

قالت السيدة عائشة رضى الله عنها : ما كان رسول الله يسرد كسردكم هذا ، ولكنه كان يتكلم بكلام بين فصل ، يحفظه من جلس إليه ، وكان يعيد الكلمة ثلاثا ليعقل عنه ، وكان متواصل الأحزان ، دائم الفكر ، ليست له راحة ، طويل السكت ، لا يتكلم فى غير حاجة ، يفتح الكلام ويختمه باسم الله ، ويتكلم بجوامع الكلم ، كلامه فصل لا فضول ولا تقصير ، ليس بالجافى ولا المهين ، إذا

أشار أشار بكفه كلهاوإذا تعجب قلبها ، وإذا تحدث اتصل بها ، وضرب براحة اليمنى بطن ابهام اليسرى ، وإذا أعرض غضب وأشاح ، وإذا فرح غض طرفه ، جل ضحكه التبسم ، يفتر عن مثل حب الغمام .

وكان لا يضحك إلا تبسما ، وكان رسول الله يحب التيمن ما استطاع فى ترجله وتنعله وطهوره وما رأيت أحدا أسرع فى مشيته من رسول الله . وكان لا يأكل متكئا ، وما شبع رسول الله من خبز الشعير يومين متتابعين ، حتى قبض ، وكان النبى يقول : أعندكم غذاء فيقال : لا. فيقول : وإنى صائم . وكان الرسول يتوضأ إذا قرب اليه طعام وكان يقول إذا طعم : باسم الله ، وإذا فرغ من طعامه . قال : الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين .

إنى لأحب حبيبها :

قالت عائشة رضى الله عنها :

إن النبى كان لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة ، وأقبلت (هالة) أخت خديجة لزيارة المدينة ، وسمع النبى صوتها فى فناء بيته ، وكان يشبه صوت الراحلة فهتف يقول :

اللهم هالة .

فما ملكت عائشة أن قالت : ما تذكر من عجوز من عجائز قريش ، بدلك الله خيرا منها .

فغضب النبى وقال :

والله ما أنت بخير منها ، ووالله ما أبدلنى الله خيرا منها ، آمنت بي حين كفر الناس وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء ، فجزاها الله عنى خير الجزاء ، اللهم كافىء خديجة بنت خويلد .

قالت عائشة : والله لا أذكرها بعدها أبدا

وكان النبى إذا ذبح الشاة يقول :

أرسلوا إلى أصدقاء خديجة .

فحدثته عائشة فى ذلك فقال :

إنى لأحب حبيبها .

بل نترفق به :

لما أثار عبد الله بن سلول الفتنة بين المهاجرين والأنصار بعد غزوة بنى المصطلق . وبلغ النبى ، أشار عمر بقتل ابن أبى سلول قال النبى : فكيف يا عمر . إذا تحدث الناس بأن محمداً يقتل أصحابه .

فلما جاء ابن عبد الله بن أبى وكان مسلما : قال : إن كان لابد آمرا بقتل أبيه فإنه يتولى هو قتله ، فقال الرسول : بل نترفق به ، ونحسن صحبته .

لما جاء بشير بن الخصاصية الدوسى ليبايع النبى اشترط عليه الشهادتين ، والصلاة ، وصيام رمضان ، والزكاة ، والحج ، والجهاد فى سبيل الله .

قال بشير : أما اثنتان فلا أطيقهما : الزكاة ، وليس لى إلا عشر ذود (نياق) هن رسل أهلى (غذاؤهم) وحمولتهم ، أما الجهاد فتقولون : إن من ولى (فر)فقد باء بغضب من الله ، وأخاف إن حضرنى قتال : أن أكره الموت.

قال النبى صلى الله عليه وسلم : لا صدقة ولا جهاد ، فبم تدخل الجنة ؟

قال بشير : يا رسول الله أبايعك عليهن كلهن .

اللهم ارحم الأنصار :

عندما خص النبى صلى الله عليه وسلم « المؤلفة قلوبهم » من قريش ببعض الغنائم فى معركة حنين . قال بعض الأنصار : لقى رسول الله قومه .

فدعاهم إلى حظيرة سعد بن عبادة وقام فيها خطيبا فقال :

يا معشر الأنصار : مقالة بلغتنى عنكم (وجدة وجدتموها على فى أنفسكم) ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف بين قلوبكم .

قالوا : بلى يا رسول الله .

قال : أما والله لو شئتم لقلتم ، وصدقتم وصدقتم : أتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخزونا فنصرناك ، وطريدا فآويناك وعائلا فآسيناك .

أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم من لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى اسلامكم ، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم .

فوالذى نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار : اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار . وأبناء أبناء الأنصار .

عارية من الله استردها :

فقدت الرميصاء ابنها فى غيبة أبيه فأخفت ذلك عنه حين عودته واستقبلته أحسن استقبال ، فرحة مرحة ، وهى تخفى أمرها كله ، فلما سألها عن الصبى قالت :

إنه بأحسن حال : فإنه منذ اشتكى ليس بأسكن منه الليلة .
وأصاب الرجل من زوجته حاجته دون أن يعرف مدى مفهوم عباراتها فلما انتهى قالت له :

أرأيت لو أن قوما أعاروا عاريتهم أهل بيت وطلبوا عاريتهم ، هل لهم أن يمنعوها .

قل أبو طلحة : لا .

قالت الرميصاء : فاحتسب ابنك . إنه كان عارية من الله وقد استرده .

وذهب الرجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم يروى قصته ، فقال النبى :

الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثل هذه .

ورفع يده إلى السماء وقال :

اللهم بارك لهما فى ليلتهما

وحملت بابنها عبد الله . وخرجت الرميصاء إلى معركة « حنين » مع زوجها وهى حامل تشجع الجنود وتعالج المرضى ، وكانت تشير إلى خنجرها وتقول :

لو أن رجلا اقترب منى لفتكت به ، واستمع النبى إلى قولها فضحك . وعاشت الرميصاء حتى أنجبت سبعة أولاد يقرأون القرآن .

كنا نعرف خروجه برائحة الطيب :

قالت عائشة رضى الله عنها :

دخل أبو بكر على رسول الله وهو مضجع ، وعليه ثوبه فقضى حاجته وخرج ، ودخل عمر فقضى حاجته وخرج ، ثم جاء على فقضى حاجته وخرج ، ثم جاء عثمان فجلس له رسول الله :

فقالت له عائشة :

لم تصنع هذا بأحد .

قال النبى : إن عثمان رجل حيى ، وانى خشيت أن أذنت له على تلك الحال ألا يبلغ إلىّ حاجته .

وكان النبى إذا لقيه أحد من أصحابه قام معه فلم ينصرف حتى يكون هو الذى ينصرف ، وإذا ما لقيه أحد فتناول يده ناوله اياها فلم ينزع يده .

وقال أنس : صحبت رسول الله عشر سنين ، وشممت العطر كله فلم أشمم نكهة أطيب من ريح رسول الله ، وما رأيت أحدا أسرع فى مشيته من النبى ، كان الأرض تطوى له ، وإنا لنجهد وهو غير مكترث .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول :

إن الله يحب من أحدكم إذا خرج لإخوانه أن يتجمل لهم ، وقال : كنا نعرف خروج النبى برائحة الطيب .

الشهادة :

قدم إلى مكة رجل من أهل البادية ، وسأل أين رسول الله فلما وصل إلى داره قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله وظل بمكة حتى هاجر الرسول فهاجر معه .

وخرج الأعرابى مع النبى فى احدى الغزوات وعند تقسيم الغنائم اعطاه النبى نصيبه ، فظهر الغضب فى وجه الأعرابى وقال :

أفعلى هذا اتبعتك يا رسول الله ؟ إنما اتبعتك على أن أقتل فى سبيل الله .

ثم نهض إلى القتال ، وبعد ساعة جاء به المجاهدون محمولا وقد أصابه سهم فى عنقه ..

* * *

وقف عثمان بن مظعون فى قلب مكة وقال :

قد تركت جوار الوليد بن المغيرة .

وسمعه الوليد وهو يردد قوله « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » فلطمه على عينه فاخضرت . فقال له الوليد : إن عينك عما أصابها لغنية قال عثمان : إن عينى الصحيحة لفقيرة إلى ما أصاب أختها فى الله وأنى لفى جوار من هو أعز منك .

ولما مات إبراهيم ابن النبى قال له الرسول :

الحق بسلفنا الصالح عثمان بن مظعون .

مائدته يوم الفتح :

روى الطبرانى عن ابن عباس :

قال النبى لأم هانئ بنت أبى طالب صبيحة فتح مكة وكان قد نزل فى بيتها :

هل عندك طعام نأكله ؟

قالت : ليس عندى إلا كسر يابسة وإنى لأستحى أن أقدمها إليك .

قال : هلمى بهن ، فكسرهن فى ماء وجاءت بملح فقال :

هل من أدم ؟

قالت : ما عندى يا رسول الله إلا شىء من خل ..

قال : هلميه .

فصبه على الطعام فأكل منه ثم حمد الله ثم قال :

نعم الإدام الخل يا أم هانئ ولا يفقر بيت فيه خل.

قال له أحد الوافدين : أنت سيدنا

فقال النبى : السيد الله ، قولوا قولكم ولا يستجرينكم الشيطان .

ألا هل بلغت : اللهم فاشهد :

عهد النبى صلى الله عليه وسلم إلى رجل يجمع الصدقات فجمعها وأتى بها الرسول وقد جعلها كومتين . قال:هذا لكم وهذا أهدى إلي .

فقال النبى : ما بال الرجل نستعمله على عمل مما ولانا الله فيقول:هذا لكم ، وهذا أهدى إلى ، فهلا جلس فى بيت أبيه ، أو أمه فينظر أيهدى اليه شىء أم لا ، والذى نفسى بيده لا يأخذ منه شيئا إلا جاء يوم القيامة يحمله على رقبتيه : ألا هل بلغت اللهم فاشهد .

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى فأطال السجود .

فلما قضيت الصلاة قيل له :

يا رسول الله : إنك سجدت سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر ، وأنه يوحى إليك .

فقال صلى الله عليه وسلم :

كل ذلك لم يكن ولكن ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعجله حتى يقضى حاجته .

وعندما مات إبراهيم بكى الرسول فقيل له :

اتبكى وأنت رسول الله .

قال : إنما أنا بشر . تدمع العين ويخشع القلب ، ولا نقول ما يسخط الرب . وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون ، وإنا لن نغنى عنك من الله شيئا .

ضيف رسول الله :

أتى النبى رجل من البادية فبعث صلى الله عليه وسلم إلى نسائه فى أمر طعام له فقلن : ما معنا إلا الماء .

قال الرسول : من يضيف هذا ؟

فأخذه رجل من الأنصار فانطلق به إلى بيته وقال لامرأته : هل عندك شىء ؟

قالت : لا. إلا قوت صبيانى .

قال : فعلليهم بشىء ، فإذا دخل ضيفنا فأطفئ السراج ، وأريه أنا نأكل ، فإذا أهوى ليأكل فقومى إلى السراج حتى تطفئيه . قال : فقعدوا وأكل الضيف .

فلما أصبح غدا على النبى ﷺ .

فما إن رآه الرسول حتى ابتسم وقال :

قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة .

وجاء اعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال :

إن امرأتى ولدت غلاما أسود .

قال النبى : هل لك من إبل ؟ قال :نعم قال :فما ألونها ؟ قال :حمر .قال : أفيها أورق ؟ (بعير يجمع بين السواد والبياض)

قال الأعرابى : نعم ، قال : فأنى كان ذلك قال : أراه عرق نزعه .

(أى أن أصلا من أصول البعير كان أسود فجذبه اليه) .

قال النبى : فلعل ابنك فيه نزعة عرق .

قال شاهد : إنه كان للأم جدة سوداء .

طرف نعيمان :

كان نعيمان من أصحاب رسول الله ، وكان لا يدخل المدينة طرفة إلا اشترى منها ثم جاء إلى النبى فيقول :

يا رسول الله : هذا أهديته إليك

فإذا جاء صاحبه فطالب نعيمان جاء به إلى النبى فيقول : يا رسول الله : أعط هذا ثمن متاعه .

فيقول النبى : أو لم تهده إلىَّ يا نعيمان .

فيقول : يا رسول الله لم يكن عندى ثمنه ولقد أحببت أن تأكله .

فيضحك النبى ويأمر لصاحبه بثمنه ..

قال عبد الله بن حذيفة بن اليمان :

مرسلا فإذا مر بآية تسبيح سبح ، وإذا مر بسؤال سأل ، وإذا مر بتعوذ تعوذ ، ثم ركع فجعل يقول : سبحان ربى العظيم .

فكان ركوعه نحوا من قيامه

ثم قال : سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد

ثم قام قياما طويلا قريبا مما ركع ، ثم سجد ، فقال :

سبحان ربى الأعلى

فكان سجوده قريبا من قيامه .

دَيْن اليهودى :

روى أن يهوديا كان له دين عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأراد أن يطلب دينه قبل حلول أجله فاعترض الرسول فى طريق المدينة وقال :

إنكم بنى عبد المطلب قوم مطل .

ورأى عمر ذلك فاشتد غضبه وقال :

ليأذن لى رسول الله أن اقطع عنقه .

قال النبى : أنا وصاحبى أحوج إلى خير من هذا منك ياعمر ،مره بحسن التقاضى ومرنى بحسن الأداء .

ثم التفت إلى الرجل وقال :

يا يهودى : إنما يحل دينك غدا .

قالت السيدة عائشة رضى الله عنها :

أتيت رسول الله بحريرة (دقيق يطبخ بلبن أو دسم) طبختها له . فقلت لسودة (والنبى بينى وبينها) :كلى ، فأبت فقلت لها : لتأكلن أو لألطخن وجهك .

فأبت ، فوضعت يدى فى الحريرة ولطخت بها وجهها .

وضحك النبى ووضع يده لها وقال لسودة :

لطخي وجهها فلطخت وجهى فضحك النبى أيضا .

فمر عمر فناداه : يا عبد الله

فظن النبى أنه سيدخل فقال :

قوما فاغسلا وجوهكما

قالت عائشة : فما زلت أهاب عمر لهيبة رسول الله اياه .

أشيروا على أيها الناس :

وقف النبى صلى الله عليه وسلم : يسأل الأنصار رأيهم قبيل غزوة بدر وكانوا قد عاهدوه على نصرته داخل مدينتهم العذراء «يثرب» وكان قد تحدث كثيرون ولكن الرسول يريد أن يسمع رأى الأنصار فظل يردد :

أشيروا على أيها الناس .

قال سعد بن معاذ : يا رسول الله ، قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك فوالذى بعثك بالحق لواستعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن نلقى عدونا غدا ، وإنا لصبر فى الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقربه عينك .

قال زيد بن ثابت :

بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم (يوم أحد) أطلب سعد بن الربيع فقال لى :

ان رأيته فأقرئه منى السلام وقل له : يقول لك رسول الله : كيف تجدك ، قال زيد : فجعلت أطوف بين القتلى فأتيته ،وهو فى آخر رمق ، وفيه سبعون ضربة ما بين طعنة رمح ، وضربة سيف ، ورمية بسهم .

فقلت له : يا سعد : إن رسول الله يقرأ عليك السلام ويقول لك : كيف تجدك قال : على رسول الله السلام ، قل له : يا سول الله : أجد ريح الجنة وقل لقومى الأنصار : لا عذر لكم عند الله إن تمكن عدو من الوصول إلى رسول الله وفيكم عين تطرف ، وفاضت روحه .

الفكاهة والمداعبة :

جاءت عجوز إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالت :

يا رسول الله : ادع الله أن يدخلنى الجنة .

قال النبى : إن الجنة لا يدخلها عجوز .

فانصرفت المرأة حزينة فقال رسول الله لأصحابه : ردوها علي فلما جاءت قال : إن الجنة لا يدخلها عجوز ، أما قرأت قول الله تعالى :

﴿ إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً عربا أترابا ﴾(١)

فانطلقت أسارير المرأة .

ما سابقت أبا بكر إلا سبقنى :

صلى النبى صلى الله عليه وسلم الصبح ذات يوم ، فلما قضى صلاته قال :

أيكم أصبح اليوم صائما ؟

قال أبو بكر : أنا يا رسول الله بت الليلة وأنا أحدث نفسى بالصوم فأصبحت صائما .

ثم سأل النبى : أيكم عاد مريضا .

قال عمر : إنما صلينا الساعة ولم نبرح فكيف نعود المريض ؟

قال أبو بكر : أنا يا رسول الله ، أخبرونى أن أخى عبد الرحمن بن عوف مريض وجع ، فجعلت طريقى إليه فسألت عنه ثم أتيت المسجد .

قال النبى : فأيكم تصدق اليوم بصدقة ؟

(١) سورة الواقعة .

قال عمر : ما برحنا معك منذ صلينا فكيف نتصدق ؟

قال أبو بكر : أنا يا رسول الله ، دخلت المسجد فإذا سائل يسأل : وابن لعبد الرحمن بن أبى بكر معه كسرة خبز فأخذتها وأعطيتها للسائل .

وكان عمر يقول : ما سابقت أبا بكر إلى خير إلا سبقنى إليه .

جاء عمر لرسول الله بنصف ماله وجاء أبو بكر بماله كله .

فلما سأله الرسول : ماذا أبقيت لعيالك ؟

قال : أبقيت لهم الله ورسوله .

ما أحب أن تشوكه شوكة :

لما اعتقل المشركون (خباب بن الأرت) من أوائل المسلمين قالوا له : أتحب أن محمداً مكانك وأنت جالس فى بيتك !

قال : والله ما أحب أن تشوك محمداً شوكة وهو فى مكانه .

فلما هدد بالقتل قال :

والله إن قتلى فى الله لقليل ، فجعلوا وجهه من حيث جاء

قال : ما صرفكم وجهى عن القبلة ، ودار بوجهه وقال :

اللهم انى لا أرى إلا وجه عدو ، اللهم ليس هاهنا أحد يبلغ رسولك عنى السلام ، فبلغه أنت عنى السلام .

عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال :

استأذن عمر على رسول الله وعنده نساء من قريش تكلمنه وتستكثرنه ، عالية أصواتهن فلما استأذن عمر قمن يبتدرن الحجاب :

فأذن له الرسول فدخل ، والرسول يضحك .

قال عمر : أضحك الله سنك يا رسول الله .

قال النبى : عجبت من هؤلاء اللائى كن عندى لما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب :

قال عمر : أى عدوات أنفسهن ، أتهبنني ولا تهبن رسول الله .

قلن : نعم . إن فيك غلظة .

قال النبى : ياعمر والذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا إلا سلك فجا غيره .

أنا وافدة النساء إليك :

وفدت أسماء بنت يزيد الأنصارية ، والتى لقبت بخطيبة نساء العرب ورسولتهن إلى النبى وهو بين صحابته .

قالت : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، أنا وافدة النساء اليك ، إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة ، فآمنا بك وبإلهك ، وإنا معشر النساء محصورات مقصورات قواعد بيوتكم وحاملات أولادكم ، وإنكم معشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات ، وشهود الجنائز ، والحج بعد الحج ، وأفضل من ذلك الجهاد فى سبيل الله عز وجل ، وإن أحدكم إذا خرج حاجا أو معتمرا ، أو مجاهدا ، حفظنا لكم أولادكم وأموالكم ، وغزلنا أثوابكم وربينا لكم أولادكم ، أفنشاركم فى هذا الأجر والخير ؟

فالتفت النبى صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال : هل سمعتم مسألة امرأة قط خيرا من مسألتها فى أمر دينها .

قالوا : يا رسول الله ما ظننا أن امرأة تهتدى إلى مثل هذا .

فالتفت النبى إليها وقال : افهمى أيتها المرأة وأعلمى من خلفك من النساء ، إن حسن تبعل المرأة لزوجها يعدل ذلك كله .

فانصرفت المرأة وهى تهلل حتى وصلت إلى نساء قومها وعرضت عليهن ما قال الرسول ففرحن ..

ساخت قوائم فرسه :

أدرك سراقة بن مالك مبعوث قريش رسول الله فى طريق الهجرة : فدعا عليه النبى فساخت قوائم فرسه فى الأرض ، فطلب الأمان فأمنه رسول الله وقال : كيف بك يا سراقة إذا لبست أساور كسرى .

فلما أتى عمر بسوارى كسرى ومنطقه وتاجه . استدعى سراقة فألبسه السوارين وقال له :

ارفع يدك وقل : الحمد لله الذى سلبها كسرى بن هرمز ، وألبسها سراقة الأعرابى .

لما جعل النبى نساءه يوم حرب الخندق مع حسان بن ثابت فى أطمة ، وكان حسان رجل شعر لا رجل حرب ، جاء رجل من فوق الأطم يطل على نساء النبى فقالت صفية بنت عبد المطلب لحسان : قم فاقتله فهاب حسان الأمر ، وقال:لوكان ذلك فىّ لكنت مع رسول الله فقامت صفية فأخذت عمودا فضربت به اليهودى حتى قتلته ثم طرحته على فوق ، وهم أسفل الأطم .
فقالوا : قد علمنا أن محمداً لم يكن يترك أهله خوا ليس معهم أحد فتفرقوا.

زفاف فاطمة :

فى ليلة زفاف فاطمة رضى الله عنها بعلى . دعا الرسول أم سلمة ، فطلب اليها أن تمضى بالعروس إلى بيت على ، وتنتظره هناك ، وصلى العشاء ، ثم مشى إلى دار على ، حيث دعا بماء فقرأ عليه بعض آى الذكر الحكيم ، ثم أمر العروسين أن يشرباه وتوضأ بالباقى ونثره على رأسهما .

وذهبت فاطمة يوما تسأل رسول الله خادما من السبايا بعد أن أجهدها ما كانت تكابده ، فلما جاء الليل ، وكانا قد رقدا ، إذا بالباب يفتح ، ويقبل عليهما الرسول فتهيآ للقائه ، فيقول :

مكانيكما ، ألا أخبركما بخير مما سألتمانى :

قالا : بلى ، قال : تسبحان اللّه دبر كل صلاة عشرا وتحمدانه عشرا ، وتكبرانه عشرا .

عن أبي موسى رضي الله عنه قال :

دخلت أنا ورجلان من بني عمي على النبي صلى الله عليه وسلم فقال أحد الرجلين :

يا رسول الله أمِّرْنا على بعض ما ولاك الله وقال الآخر : مثل ذلك –

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم :

إنا والله لا نولي على هذا العمل أحدا سأله . ولا أحدا حرص عليه .

الصحابة :

سمى النبي « طلحة » يوم أحد : طلحة الخير وفي غزوة العسرة « طلحة الفياض » وفي يوم خيبر « طلحة الجود » .

وقال سعد بن أبي وقاص :

نبلني رسول الله يوم أحد (أي وضع لي النبل) وقال :

ارم فداك أبي وأمي ، وقال عليه الصلاة والسلام : اللهم سدد رميه وأجب دعوته .

وقال : لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة الجراح .

وقال : اهتز العرش لموت سعد بن معاذ .

وقال : ما أقلّت الغبراء ولا أطلت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر – وقال ابن عباس : ضمني النبي إلى صدره وقال :

اللهم علمه الحكمة وقال : نعم الرجل عبد الله بن عمر كان يصلي بالليل ثم ما كان ينام من الليل إلا قليلا . وكان عليه السلام يقول : ما لكم وعمار (أي عمار بن ياسر) انما عمار جلدة ما بين عيني ، وكان بنو مخزوم يعذبونه وأمه ، وكان يمر بهما النبي ويقول :

صبرا آل ياسر إن موعدكم الجنة .

قال النبى لفاطمة :

يا فاطمة بنت محمدَ سلينى ما شئت من مالى لا أغنى عنك من اللّه شيئا .

وقال : والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها .

هذه بتلك :

قالت عائشة رضى الله عنها :

كان السودان يلعبون فى أيام العيد بالدورق والحراب فقال النبى : إن كنت أشتهى أن أنظر .

قلت نعم : قالت فاق منى وراءه وهو يقول دونكم بنى ارقده حتى اذا مللت قال حسبك قلت نعم قال فاذهبى .

وتقول :

خرجت مع النبى فى بعض أسفاره وأنا جارية لم أكن أحمل اللحم فقال للناس : تقدموا، تقدموا، ثم قال لى : أسابقك ، فسابقته فسبقته .

فسكت حتى إذا حملت اللحم وكنا فى سفرة أخرى ، قال للناس : تقدموا.

ثم قال : تعالى أسابقك ، فسابقته فسبقنى . فجعل صلى الله عليه وسلم يضحك ويقول : هذه بتلك .

عن حكيم بن حزام رضى الله عنه قال : سألت رسول اللّه فأعطانى ثم سألته فأعطانى ثم قال : يا حكيم ، إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ومن أخذه بإسراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذى يأكل ولا يشبع واليد العليا خير من السفلى .

قال حكيم : والذى بعثك بالحق لا أسأل أحدا بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا .

أنت بالخيار :

خرج صفوان بن أمية هاربا من مكة عندما دخلها رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فاتحا ، ليقذف بنفسه فى البحر ، فذهب عمير بن وهب إلى رسول اللّه يطالب له الأمان فأمنه النبى .

قال يارسول الله ، اعطنى علامة يعرف بها أمانك فأعطاه عمامته التى دخل بها مكة . فأدرك عمير صفوان وقال له : هذا أمان رسول الله قد جئتك به .

وعاد صفوان فوقف على رسول الله فى مجلسه فقال : إن هذا يزعم أنك أمنتنى . قال النبى : صدق .

قال : فاجعلنى بالخيار شهرين . قال النبى : أنت بالخيار أربعة أشهر .

خرج أبو سفيان من مكة حتى قدم المدينة (قبل فتح مكة) فدخل على ابنته أم حبيبة زوج النبى . فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله طوته عنه .

قال : يا بنية ، ما أدرى أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عنى .

قالت أم حبيبة : بل هو فراش رسول الله وأنت رجل مشرك فلم أحب أن تجلس عليه .

قال أبو سفيان : لقد أصابك يا ابنتى بعدى شر كثير .

ما هو بملك :

قال عدى بن حاتم الطائى : دخلت على رسول اللّه فى مسجده فانطلق بى إلى بيته فواللّه إنه لعائد إذ لقيته امرأة ضعيفة فاستوقفته فوقف لها طويلا تكلمه فى حاجتها .

قال : قلت فى نفسى واللّه ما هذا بأمر ملك ، ثم قال : إيه يا عدى بن حاتم ، ألم تك ركوسيا .

قال : قلت : بلى .. قال : أو لم تكن تسير فى قومك بالمرباع قلت : بلى .

قال : فإن ذلك لم يكن يحل لك فى دينك .

قال : أجل واللّه .

قال عدى : وعرفت أنه نبى مرسل يعلم ما لا نعلم .

ثم قال : لعلك يا عدى إنما يمنعك من دخول هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فواللّه ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عَدَدِهِم وقلة عُدَدِهم ، فواللّه ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان فى غيرهم ، وايم اللّه ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم ... قال : فأسلمت ..

الفصل الثانى
الحُكْم وتقوى الله
فى الرعية

يقدم التاريخ الإسلامى صورا رائعة من العدل والسماحة فى مجال الحكم ، والتعامل بين الراعى والرعية ، تسجل بتقدير وإنصاف عظمة هذا الدين الحق ، وسلامة هذا النهج القرآنى الكريم الذى علمه رسول الله للمسلمين . وطبقه الخلفاء والصحابة ، والتابعون فى مجتمعهم فحققوا به عدالة ، ورحمة وكرامة ، وعاشوا به سعداء . جامعين بين خيرى الدنيا والآخرة ، لا يطوف بهم حقد . ولا بأساء ولا مظلمة ، وإنما هناك إخاء ، ووفاء فالوالى يسمع النصح إذا وجه إليه والناس يقولون سمعنا وأطعنا لكتاب الله يطبقه الحاكم العادل .

الصديق أبو بكر :

ظل الصديق أبو بكر بعد أن ولى الخلافة يغدو إلى السوق يحمل أثوابا من تجارته . ولقيه عمر ومعه أبو عبيدة فقال عمر :

أين تريد يا خليفة رسول الله ؟

قال : السوق .

قال عمر : تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين .

قال أبو بكر : فمن أين أطعم عيالى ؟

قال عمر : انطلق بنا حتى نفرض لك شيئا .

فانطلق معهما ففرضوا له شطر شاة كل يوم ، فلم يكن يكفيه ذلك ولا عياله ، فلما أصبح الصباح خرج إلى البقيع وأخذ يصفق بيديه فإذا هو فى السوق يبيع .

فأخذ عمر بيده وقال : تعال هاهنا .

قال أبو بكر : لا حاجة لى فى امارتكم ، رزقتمونى ما لا يكفينى ولا عيالى .

قال عمر : فإنا نزيدك .

قال أبو بكر : ثلاث مائة دينار والشاة كلها .

قال عمر : قد فعلنا .

ولم يقبل أبو بكر بل ذهب إلى المسجد ، ودعا الناس ، وقص القصة على المسلمين .

قالوا : اللهم نعم قد رضينا .

إلا باب أبى بكر :

وقف صلى عليه وسلم فى المسجد يقول :

إن عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا ، وبين ما عنده فاختار ما عند الله .

فلما سمعه أبو بكر انشج بالبكاء وهو يغالب العبرات : ويقول :

بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا .

وأشار إليه الرسول بيده وقال : على رسلك يا أبا بكر .

وقال النبى : انظروا هذه الأبواب اللافظة فى المسجد فسدوها إلا باب أبى بكر ، فإنى لا أعلم أحدا كان أفضل فى الصحبة عندى يدا منه ولو كنت متخذا خليلا لا تخذت أبا بكر خليلا ، ولكن أخوة الإسلام حتى يجمع الله بيننا .

ونادى النبى قبل أن يقبض .

أيها الناس : من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى فَلْيَسْتَقِدْ منّى ، ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضى فليستقد منه ومن أخذت منه مالا فهذا مالى فليأخذ منه ولا يخش الشحناء فهى ليست من شأنى .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم :

أرحم أمتى بأمتى أبو بكر : وأشدهم فى أمر الله عمر ، وأصدقهم حياء : عثمان ، واقرؤهم لكتاب الله : أبى بن كعب ، وأفرضهم : زيد بن ثابت وأعلمهم بالحلال والحرام : معاذ بن جبل .

كدت تهلكنى :

كان لأبى الصديق غلام يغل عليه فأتاه ليلة بطعام فتناول منه لقمة فقال له المملوك :

مالك كنت تسألنى كل ليلة ولم تسألنى الليلة .

قال الصديق : حملنى على ذلك الجوع .

قال : صنعت رقية لقوم فى الجاهلية فأعطونى .

قال أبو بكر : أف لك ان كدت لتهلكنى .

فأدخل يده فى حلقه وجعل يخرج الطعام .

فقيل له : يرحمك الله ، أكل هذا من اللقمة ؟

قال : لو لم تخرج إلا مع نفسى لأخرجتها ، لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به .

عندما حضرت أبو بكر الوفاة ، أتى عثمان وأملى عليه عهده بتولية عمر ، فلما أملاه قوله :

هذا ما عهد به أبو بكر ابن أبى قحافة إلى المسلمين أما بعد :
وهنا أغمى على أبى بكر ، وخشى عثمان أن تكون الوفاة ،فأسرع يكتب :

« فإنى قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم » وأفاق أبو بكر فقرأ عليه عثمان ما كتب فكبر الخليفة وقال :

أراك خفت أن يختلف الناس إن مت فى عشيتى . جزاك الله خيرا عن الإسلام .

زادونى بكل درهم عشرة :

قال ابن عباس :

قحط الناس فى زمن أبى بكر فقال أبو بكر : لا تمشوا حتى يفرج الله عليكم فلما كان من الغد جاء البشير إليه فقال :

لقد قدمت لعثمان ألف راحلة برا وطعاما ، فغدا التجار على عثمان فقرعوا عليه الباب فخرج إليهم وعليه ملاءة قد خالف بين طرفيها على عاتقه فقال لهم : ما تريدون .

قالوا : بلغنا أنه قدم لك ألف راحلة بر وطعاما ، بعنا : حتى نوسع على فقراء المدينة .

قال لهم عثمان : ادخلوا فدخلوا فإذا ألف فرقد صب فى الدار .

قال عثمان : كم تربحونى على شرائى من الشام .

قالوا : العشرة اثنى عشر ، قال : قد زادونى قالوا : العشرة أربعة عشر .

قال : قد زادونى : قالوا : العشرة خمسة عشر .

قال : قد زادونى : قالوا : من زادك ونحن تجار المدينة .

قال : زادونى بكل درهم عشرة ، هل عندكم زيادة .

قالوا : لا :

قال : فأشهدكم أنها صدقة على فقراء المدينة .

النسابة :

استقبل الصديق أبو بكر قوما فقال :

ممن القوم . قالوا : من ربيعة .

قال : وأى ربيعة ، أنتم هامتها . قالوا :
من هامتها العظمى قال : وأى هامتها العظمى أنتم :
قالوا : ذهل الأكبر .

قال أبو بكر : فمنكم عوف بن محلم الذى يقال فيه : لا حر بوادى عوف .

قالو : لا ، قال:فمنكم جساس بن مرة الحامى الذمار ، والمانع الجار ، قالوا : لا . قال : فمنكم أخوال الملوك من كندة ، قالوا:لا . قال : فمنكم أصهار الملوك فى لخم . قالوا : لا .

قال أبو بكر : فلستم ذهلا الأكبر ، بل أنتم من ذهل الأصغر .

الفاروق عمر :

بينما عمر قد وضع بين يديه طعاما إذ جاء الغلام فقال :

هذا عتبة بن فرقد بالباب .

قال : وما أقدم عتبة إذن ؟

فلما دخل رأى بين يدى عمر طعامه وهو خبز وزيت .

قال : اقترب يا عتبة فأصب من هذا .

فذهب يأكل . فإذا هو بطعام خشن لا يستطيع أن يسيغه.

فقال : يا أمير المؤمنين . هل لك فى طعام يقال له الحوارى « لباب الدقيق » .

قال : ويلك ويسع المسلمين كلهم . قال : لا والله .

قال : ويلك يا عتبة ! افأردت أن آكل طيباتى فى حياتى الدنيا واستمتع بها .

وقدم الشام فصنع له طعام لم ير قبله مثله فقال :

هذا لنا فما للفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير .

قال خالد بن الوليد : لهم الجنة .

فاغرورقت عينا عمر وقال : لئن كان حظنا فى هذا الطعام وذهبوا بالجنة ، لقد باينونا بونا بعيدا .

أذكرك بالله :

صاح عمر بن الخطاب على رجل يوما وعلاه بالدرة فقال له الرجل : أذكرك بالله .

فطرحها وقال : لقد ذكرتنى عظيما .

وعن ابن عمر قال :ما رأيت عمر غضب قط ، فذكر الله عنده أو خوفه أو قرأ عنده انسان آية من قرآن إلا وقف عما يريد .

قال أسلم : جاء بلال يريد أن يستأذن على عمر فقلت : إنه نائم ، فقال : يا أسلم كيف تجدون عمر .

فقلت : خير الناس إلا إنه إذا غضب فهو أمر عظيم .

فقال بلال : لو كنت عنده ، إذا غضب قرأت عليه القرآن حتى يذهب غضبه .

قال عمر لأصحابه :

دلونى على رجل أستعمله .

قالوا : وما شرطك فيه .

قال : إذا كان فى القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم ، وان كان أميرهم كان كأنه رجل منهم .

أين ملككم :

أرسل قيصر رسولا إلى عمر بن الخطاب لينظر أحواله ويشاهد أفعاله ، فلما دخل المدينة سأل أهلها وقال : أين ملككم !

قالوا : مالنا ملك ، بل لنا أمير قد خرج إلى ظاهر المدينة .

فخرج الرسول فى طلبه ، فرآه نائما فى الشمس على الأرض فوق الرمل الحار وقد وضع درته كالوسادة والعرق يسقط من جبينه قد بل الأرض .

فلما رآه على هذه الحالة وقع الخشوع فى قلبه وقال :

رجل لا يقر للملوك قرار من هيبته وتكون هذه حالته !

ولكنك يا عمر عدلت فأمنت فنمت ، وملكنا يجور فلا جرم أنه لا يزال ساهرا خائفا ، أشهد أن دينك الدين الحق ، ولولا أننى أتيت رسولا لأسلمت ولكنى أعود وأسلم .

دخل رجل على قتيبة بن مسلم فى حاجة له ووضع نصل سيفه على اصبع رجل الأمير ، وجعل يكلمه فى حاجته ، وقد أدمى النصل إصبعه ، فلما فرغ الرجل من حاجته وانصرف ، دعا قتيبة بن مسلم بمنديل فمسح الدم من إصبعه وغسله .

فقيل له : ألا نحيت رجلك أصلحك الله ، أو أمرت الرجل برفع سيفه عنها .

قال : خشيت أن أقطع عنه حاجته .

وفاء عمر :

روى أن عمر بن الخطاب مر فى سوق المدينة فرأى إياس بن سلمة معترضا فى طريق ضيق فخفقه بالدرة وقال له :

أمط (تنح) عن الطريق .

ثم دار الحول ولقيه فى السوق : فقال : أردت الحج هذا العام ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، فأخذه بيده حتى دخل البيت ، وأعطاه ستمائة درهم ، وقال له : يا سلمة استعن بهذه واعلم أنها من الخفقة التى خفقتك بها عام أول .

فقال إياس : يا أمير المؤمنين ما ذكرتها حتى ذكرتنيها .

فأجابه عمر : أنا والله ما نسيتها .

وذلك من وفاء عمر .

الإنصاف من النفس :

عن جبير : أن نفرا قالوا لعمر بن الخطاب : والله ما رأينا رجلا أقضى بالقسط ولا أقول بالحق ولا أشد على المنافقين منك يا أمير المؤمنين ، فأنت خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال عوف بن مالك : كذبتم والله ، لقد رأيت بعد رسول الله خيرا من عمر ، أبا بكر .

قال عمر : صدق عوف وكذبتم ، ولقد كان أبو بكر أطيب من ريح المسك وأنا أضل من بعير أهلى (يعنى قبل أن يسلم) .

الموت :

قال ابن عباس ، دخلت على عمرو بن العاص وهو يحتضر فقلت له :

يا أبا عبد الله : كيف تجدك ؟

قال : أجد السماء كأنها منطبقة على الأرض وأنا بينهما وأرانى كأنما اتنفس من خرم ابرة ثم قال : اللهم أمرت فعصينا ، ونهيت فركبنا ، فلا برىء فأعتذر ، ولا قوى فأنتصر ، ولكن لا إله إلا الله ثم فاضت روحه .

ولقى الحسن البصرى الشاعر الفرزدق فى جنازة فقال له الحسن :

ماذا أعددت لهذا اليوم ؟

قال : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله منذ ستين سنة ، وخمس نجائب (يعنى الصلوات الخمس)

المرء بأصغريه :

عندما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة وفدت عليه وفود العرب ، ووفد عليه وفد الحجاز ، فاختار الوفد غلاما منهم ، فقدموه عليهم ليبدأ الكلام فلما ابتدأ الغلام بالكلام ، وهو أصغر القوم سنا : قال عمر : مهلا يا غلام ، ليتكلم من هو أسن منك فقال : مهلا يا أمير المؤمنين . إن المرء بأصغريه : قلبه ولسانه فإذا منح الله العبد لسانا لا فظا وقلبا حافظا فقد استجاد له الحيلة يا أمير المؤمنين . ولو كان الأمر بالسن فى تهذه الأمة لكان اولى بالخلافة من هو أسن منك .

قال عمر : تكلم يا غلام .

وجه أبو بكر رضى الله عنه : أسامة بن زيد على رأس جيش إلى الشام وخرج يشيعه راحلا ، فعظم الأمر على أسامة وقال :

يا خليفة رسول الله ، إمَّا أن تركب ، وإمَّا أن أنزل قال له أبو بكر : ما أنا براكب وما أنت بنازل ، ومالى لا أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله .

ضعها على صلعة عمرو :

قال أنس : كنا عند عمر بن الخطاب إذ جاء رجل من أهل مصر ، فقال : يا أمير المؤمنين : هذا مقام العائذ بك قال : مالك ! قال : أجرى عمرو بن العاص بمصر الخيل فأقبلت فرسى فلما رآها الناس قام محمد بن عمرو فقال :

فرسى ورب الكعبة .

فلما دنا منى عرفته ، فقلت : فرسى ورب الكعبة .

فقام إلى وضربنى بالسوط وهو يقول : تأخذها وأنا ابن الأكرمين . وبلغ عمرو ذلك فخشى أن آتيك فحبسنى فى السجن فانفلت منه ، فوالله ما زاد عمر على أن قال له : اجلس .

ثم كتب إلى عمرو : إذا جاءك كتابى هذا فأقبل وأقبل معك بابنك محمد ، وقال للمصرى : أقم حتى يأتيك .

فدعا عمرو ابنه فقال : أأحدثت حدثا ، أجنيت جناية ، قال :

لا . قال : فما بال عمرو يكتب فيك ؟

فقدما على عمر قال أنس : فوالله إنا عند عمر وإذا نحن بعمرو أقبل فى ازار ورداء ، فجعل عمر يلتفت هل يرى ابنه فإذا هو خلف أبيه : فقال : أين المصرى . قال : هأنذا قال : دونك الدرة فاضرب بها ابن الأكرمين .

فضربه حتى أثخنه ، ونحن نشتهى أن يضربه فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين ثم قال : ضعها على صلعة عمرو فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه قال : يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضربنى .

قال : أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذى تدعه ياعمرو : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟

ثم التفت إلى المصرى وقال : انصرف راشدا فإن رابك ريب فاكتب إلى .

الشرط أملك :

وفدت على عمر بن الخطاب ثياب من اليمن فأراد أن يقسمها بين الناس ، فرأى فيها حلة رديئة فقال : كيف أصنع بها إن أعطيتها أحدا لم يقبلها إذا رأى ذلك العيب .

فأخذها وطواها فجعلها تحت مجلسه بحيث لا يظهر إلا طرفها ، ووضع سائر الثياب بين يديه على تلك الحال ، فرأى الزبير بن العوام طرف تلك الحلة . فقال : ما هذه ؟ .

قال عمر : دع هذه عنك . قال الزبير : بل اعطنى اياها .
قال عمر : إنك لا ترضاها . قال : بلى قد رضيتها ، فلما استوثق عمر

منه وشرط عليه أن يقبلها ولا يردها رمى بها إليه فلما أخذها الزبير ونظر إليها وعرف ما بها من عيب قال : لا أريدها .

قال عمر : هيهات ، قد فرغت منها .

أصابت المسلمين مجاعة فى عهد عمر بن الخطاب وحدث أن جاءته قافلة تحمل اللحم والسمن والطعام والكساء . فوزعها بنفسه على الناس ، وأبى أن يأكل منها شيئا ، وقال لرئيس القافلة : ستأكل معى فى البيت ومنى الرجل نفسه بطعام شهى .

وجاء إلى البيت ، وأنهكهما الجوع والتعب ، ونادى عمر فحضر الطعام ، وكان ما أذهل الرجل وأدهشه :

كسرات من الخبز الأسود واليابس مع صحن من الزيت . قال الرجل : ما يمنعك أن تأكل مما يأكل منه الناس ؟ قال عمر : قد آليت على نفسى ألا أذوق السمن واللحم حتى يشبع منها المسلمون جميعا.

لو أن عنزا بشاطىء الفرات ذهبت :

قال على بن أبى طالب :

رأيت عمر بن الخطاب على قتب (بعير) فقلت :

يا أمير المؤمنين أين تذهب ؟

قال : بعير ند (شرد) من إبل الصدقة أطلبه ، فقلت : لقد أذللت الخلفاء من بعدك .

قال عمر : يا أبا الحسن ، لا تلمنى ، فوالذى بعث محمدا بالنبوة لو أن عناقا (عنزا) ذهبت بشاطىء الفرات لسئل عنها عمر يوم القيامة .

وهل ينام أمير المؤمنين ؟

عندما فتح عمرو بن العاص « قيسارية » سارحتى نزل غزة فبعث إليه أميرها أن ابعث إلى رجلا من أصحابك أكلمه ففكر عمرو وقال : ما لهذا أحد غيرى . وخرج حتى دخل على الأمير فكلمه ، فسمع كلاما لم يسمع قط مثله .

فقال الأمير : حدثنى هل فى أصحابك أحد مثلك ؟

قال : لا تسأل عن هذا ، إنى هين عليهم إذ بعثوا بى إليك ، وعرضونى لما عرضونى له ، ولا يدرون ما تصنع بى .

بعث أحد الولاة رسولا إلى عمر . فلما وافى المدينة ليلا قال :

أنام فى المسجد حتى إذا أسفر النهار أبلغت الرسالة .

فلما دخل سمع صوتا خافتا يناجى .

فقال : السلام عليك يا أخا العرب .

قال عمر : من ؟ يرحمك الله .

قال أنا رسول والى مدينة كذا إلى أمير المؤمنين .

قال عمر : تعال هنا وقل ما عندك ، أنا عمر .

فتعجب الرسول . فقال له عمر : بئس ما ظننت ، يا أخى كيف أكون مسئولا وأنام ؟

والله لو نمت نهارى لأضيعن الرعية ، ولو نمت ليلى لأضيعن نفسى .

تركته يأمر وينهى :

لما مرض زياد ، دخل عليه شريح القاضى يعوده ، فلما خرج بعث إليه مسروق بن الأجدع ليسأله :

كيف تركت الأمير ؟

قال : تركته يأمر وينهى .

قال مسروق : إن شريحا صاحب تعريض فاسألوه .

قال : تركته يأمر بالوصية وينهى عن البكاء .

(يريد أنه أوشك على الموت) .

الصلاة جامعة :

نادى عمر بن الخطاب يوما « الصلاة جامعة » .

فلما اجتمع الناس صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! لقد رأيتنى وأنا أرعى على غنم لخالات لى من بنى مخزوم ، فكنت أستعذب لهن الماء فيقبض لي القبضة من التمر أو الزبيب ثم نزل .

فقال له عبد الرحمن بن عوف : ما أردت إلى هذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال : ويحك يا ابن عوف ، خلوت بنفسى فقالت لى :

أنت أمير المؤمنين وليس بينك وبين اللّه أحد ، فمن ذا أفضل منك فأردت أن أعرفها قدرها .

استدان ولد لعمر بن الخطاب من أبى موسى الأشعرى حين كان واليا على الكوفة أموالا من بيت المال ليتاجر بها على أن يردها كاملة غير منقوصة . واتجر ولد عمر فربح ، فبلغ ذلك عمر فقال له :

– إنك حين اقترضت من أبى موسى إنما أعطاك لأنك ولد أمير المؤمنين ، وإنك حين اشتريت أنقص لك البائعون لأنك ولد أمير المؤمنين ،ولما بعت زاد لك المشترون فى الثمن لأنك ولد أمير المؤمنين ، لاجرم أن كان للمسلمين حق فيما ربحت ، فقاسمه نصف الربح واسترد منه القرض واشتد فى العتب على أبى موسى لأنه أقرض ولد أمير المؤمنين من أموال المسلمين مالا يفعله مع غيره من الرعية .

اقتربن من الأبواب لأقرأ لكن :

كان عمر يمشى إلى المغيبات اللواتى غاب أزواجهن فيقف على أبوابهن ويقول : ألكن حاجة ؟ وأيتكن تريد أن تشترى شيئا ؟

فإنى أكره أن تخدعن فى البيع والشراء ، فيرسلن معه بجواريهن فيدخل السوق ووراءه من جوارى النساء وغلمانهن مالا يحصى، فيشترى لهن حوائجهن ، ومن ليس عندها شىء اشترى لها من عنده .

وإذا قدم الرسول من بعض الثغور يتبعهن بنفسه فى منازلهن بكتب أزواجهن ويقول :

– أزواجكن فى سبيل الله وأنت فى بلاد رسول الله إذا كان عندكن من يقرأ ، وإلا فاقربن من الأبواب حتى اقرأ لكن ، ثم يقول : الرسول يخرج يوم كذا وكذا فاكتبن حتى نبعث بكتبكن .

ثم يدور عليهن بالقراطيس والدواة ويقول :

– هذه دواة وقرطاس فادنين من الأبواب حتى أكتب لكن ويمر على المغيبات فيأخذ كتبهن فيبعث بها إلى أزواجهن وإذا كان فى سفر نادى الناس فى المنزل عند الرحيل :

– ارحلوا أيها الناس .

فإذا استقلوا قام فرحل بعيره وعليه غرارتان أحدهما فيها سويق والأخرى فيها تمر وبين يديه قربة فيها ماء وخلفه جفنة .

كلما نزل جعل فى الجفنة من السويق وصب عليه من الماء وبسط إلنطع فكل من جاء يخاصم ، أو يسقى ، أو يطلب حاجة قال له :

– كل من هذا السويق والتمر .

لا تعجليه :

قال عبد الرحمن بن عوف : قدمت رفقة من التجار نزلوا المصلى فقال لى عمر : هل لك أن تحرسهم الليلة .

فباتا يحرسانهم ويصليان ما كتب الله لهما .

فسمع عمر بكاء صبى ، فتوجه نحوه فقال لأمه : اتقى اللّه وأحسنى إلى الصبى ، ثم عاد إلى مكانه فسمع بكاءه ، فعاد إلى أمه ، فقال : اتقى اللّه وأحسنى إلى صبيك ، ثم عاد إلى مكانه ، فلما كان فى آخر الليل سمع بكاءه فأتى أمه ، فقال :

– ويحك لأراك أم سوء ، مالى أرى ابنك لا يقر منذ الليلة .

قالت : يا عبد الله قد أبرمنى منذ الليلة (أى أضجرنى) انى أريغه (أحوله) عن الفطام فيأبى .

قال عمر : ولم ؟ قالت : لأن عمر لا يفرض إلا للفطيم .

قال : وكم له . قالت : كذا وكذا شهرا .

قال : ويحك لا تعجليه .

فصلى الفجر وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء ، فلما سلم قال :

– يا بؤساء لعمر ، كم قتل من الأولاد المسلمين .

ثم أمر مناديا فنادى :

ـ أن لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام فإنا نفرض لكل مولود فى الإسلام وكتب بذلك إلى الآفاق .

يا سارية الجبل :

بينما كان عمر بن الخطاب يخطب يوم الجمعة بالمدينة ، التفت من الخطبة ونادى :

– يا سارية بن حصن : الجبل الجبل ومن استرعى الذئب ظلم فلم يفهم المسلمون مراده .

فلما قضيت الصلاة سأله « على » قال عمر : أو سمعت ما قلت ! لقد وقع فى خاطرى أن المشركين هزموا إخواننا وأنهم يمرون بجبل فإن عدلوا إليه قاتلوا من وجدوه ، وإن جاوزوه هلكوا فخرج منى هذا الكلام .

ثم جاء بعد من ميدان القتال من ذكر أنهم سمعوا صوتا فى تلك الساعة يشبه صوت عمر يقول :

« يا سارية الجبل » .

قال : فعدلنا إليه ففتح الله علينا .

بينما عمر يعس فى المدينة بالليل أتى على امرأة من الأنصار تحمل قربة فسألها عن شأنها ، فذكرت أن لها عيالا وأن ليس لها خادم ، وأنها تخرج فى الليل فتسقيهم الماء وتكره أن تخرج بالنهار ، فحمل عمر عنها القربة حتى بلغ منزلها .

وقال : اغدى على عمر غدوة يخدمك خادما .

قالت : لا أصل إليه .

قال : إنك ستجدينه إن شاء الله تعالى .

فغدت عليه فإذا هى به ، فعرفت أنه الذى حمل عنها قربتها فذهبت تولى ! فأرسل فى إثرها وأمر لها بخادم ونفقة .

يتولى أمرنا ويغفل عنا :

عن أسلم قال :

خرجنا مع عمر بن الخطاب إلى حرة راقم ، حتى إذا كنا بصرار إذا نار تؤرث (أى تشعل) قال :

يا أسلم إنى أرى هاهنا ركبانا قصر بهم الليل والبرد ، انطلق بنا . فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم فإذا امرأة معها صبيان وقدر منصوبة على نار وصبيانها يتضاغون (أى يتصايحون) .

السلام عليكم يا أهل الضوء وكره أن يقول (يا أصحاب النار) فقالت : وعليكم السلام ، قال : أأدنو - قالت : ادن بخير أودع ، فدنا منها . فقال : ما بالكم . قالت : قصر بنا الليل والبرد . قال : وما بال هؤلاء الصبية يتضاغون قالت : الجوع .

قال : وأى شىء فى هذا القدر . قالت : ماء أسكتهم به حتى يناموا والله بيننا وبين عمر .

قال : أى رحمك الله وما يدرى عمر بكم .

قالت : يتولى أمرنا ثم يغفل عنا .

فأقبل على وقال : انطلق بنا ، فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق فأخرج عدلا من دقيق وكبة شحم ، وقال : أحمله على .

قلت · أنا أحمله عنك .

قال : أنت تحمل وزرى يوم القيامة ؟

فحملته عليه فانطلق وانطلقت معه إليها فألقى ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئا، فجعل يقول لها : ذرى على وأنا أحر لك وجعل ينفخ تحت القدر فرأيت الدخان يخرج من خلال لحيته. حتى طبخ لهم فأتته بصحفة فأفرغها فيها ، فيجعل يقول لها :

– أطعميهم وأنا أسطح لهم (أى ابسطه حتى يبرد) .

أصابت امرأة وأخطأ عمر :

قال عبد الله بن مصعب :

خطب عمر رضوان الله عليه فقال :

– لا تزيدوا مهور النساء على أربعين أوقية ، وإن كانت بنت ذى الفضة . يعنى يزيد بن الحصين الحارثى ، فمن زاد ألقيت الزيادة فى بيت المال . فقامت امرأة من صف النساء طويلة فى أنفها فطس . فقالت :

– ما ذاك لك ؟ . قال : ولم ؟

قالت : لأن الله تعالى يقول : ﴿ وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا ﴾ .

قال عمر رضوان الله عليه :

– امرأة أصابت وأخطا عمر .

كان زهير بن أبى سلمى كثير المدح لهرم بن سنان .

والتقت بنتان لسنان بن أبى حارثة مع بنت لزهير بن أبى سلمى فقالت : قد سرنى ما أرى من هذه الشارة والنعمة عليك فقالت بنت زهير : إنها منكم وكان هرم قد أنعم على أبيها ـ فقالت :

– بلى والله لك الفضل ، أعطيناكم ما يفنى وأعطيتمونا ما يبقى . (تعنى حسن الذكر بالشعر) .

مالك عندى غير سهمك :

– بينما عمر يمشى فى سكة من سكك المدينة إذا هو بصبية تفيض هزالا ، تقوم مرة وتقع مرة أخرى .

قال عمر : ياحوبتها ، يابؤسها ، من يعرف هذه منكم ؟

قال عبد الله بن عمر : أما تعرفها ياأمير المؤمنين ؟

قال لا :

قال : هذه احدى بناتك .

قال : وأى بناتى هذه ؟

قال : هذه فلانة بنت عبد الله بن عمر .

قال : دعك وما صيرها إلى ما رأى ؟

قال : منعك ما عندك .

قال : ومنعى ما عندى منعك أن تطلب لبناتك ما يطلب القوم لبناتهم إنك والله مالك عندى غير سهمك من المسلمين وسعك ، أو أعجزك ، هذا كتاب الله بينى وبينكم .

* * *

وقفت امرأة على قيس بن سعد بن عبادة فقالت :

– أشكو إليك قلة الجراذان .

قال : ما أحسن هذه الكناية ، املأوا لها بيتها خبزا ولحما وسمنا .

إن رب أمير المؤمنين معنا :

بينما عمر يعس ذات ليلة ، إذ مر برحبة من رحاب المدينة فإذا هو ببيت شعر لم يكن بالأمس فدنا منه فسمع أنين امرأة ، ورأى رجلا قاعدا ، فدنا منه فسلم عليه ثم قال :

– من أنت ؟ قال : رجل من أهل البادية جئت إلى أمير المؤمنين أصيب من فضله ، قال : ما هذا الصوت الذى اسمعه فى البيت ؟ قال : امرأة تمخض . قال هل عندها أحد ؟

قال : لا . فانطلق حتى أتى منزله ، فقال لامرأته :

(أم كلثوم) هل لك فى أجر ساقه الله إليك ؟

قالت : ما هو ؟ قال : امرأة غريبة تمخض ليس عندها أحد .

قالت : نعم . قال : فخذى معك ما يصلح المرأة لولادتها . وحمل البرمة ومشت خلفه ، وقال للرجل : أوقد لى نارا ، ففعل ، فأوقد تحت البرمة حتى انضجها . . ووضعت المرأة ، فقالت امرأته : يا أمير المؤمنين بشر صاحبك بغلام . فلما سمع الأعرابى بأمير المؤمنين : كأنه هابه فجعل يتنحى عنه . فقال له :

مكانك كما أنت ، فحمل البرمة فوضعها على الباب ، ثم قال: أشبعيها ففعلت ، ثم أخرجت البرمة فوضعتها على الباب ، فقام عمر فوضعها بين يدى الرجل . وقال : كل ويحك فإنك قد سهرت من الليل ..

قالت :

عجوز يتعهدها :

خرج عمر فى سواد الليل فرآه طلحة ، فذهب عمر فدخل بيتا ، ثم دخل بيتا آخر ، فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت فإذا بعجوز عمياء مقعدة فقال :

– ما بال الرجل يأتيك !

قالت : إنه يتعاهدني منذ كذا وكذا ، يأتيني بما يصلحني ويخرج عني الأذى .

فقال طلحة لنفسه :

ثكلتك أمك طلحة ، أعثرات عمر تتبع .

حوار معن والرشيد :

قال هارون الرشيد لمعن بن زائدة :

– كيف زمانك يا معن .

قال : يا أمير المؤمنين . أنت الزمان فإن صلحت صلح .

قال له : كبرت يا معن

قال : فى طاعتك يا أمير المؤمنين .

قال : وإنك لجلد .

قال : على أعدائك .

قال : وان فيك لبغية .

قال : هى لك .

القاضى الذى يحتجب عن الناس :

شكا الناس إلى عمر بن الخطاب خليفة المسلمين من أن القاضى الذى وكل إليه الفصل فى أمورهم ، يحتجب عنهم يوم الخميس ويوم الجمعة ولا يغادر بيته قبل الضحى ، ولا يلقاهم فى الليل أبدا .

واستدعى عمر القاضى ، ونقل إليه ما قاله الناس عنه :

وسأله : أصحيح ما قيل فيك ؟

قال القاضى : بلى يا عمر .

فبهت عمر من أجابة القاضى وقال له : يكون هذا منك وعهدك بك عادلا تقيا ؟

قال القاضى : إنى لأحتجب يوم الخميس لأغسل ثوبى الذى لا أملك سواه ، وأحتجب يوم الجمعة لألقى الله فى يوم لا ألقى فيه الناس .

وأتأخر فى بيتى حتى الضحى ، لأساعد امرأتى العجوز فى خدمة البيت، أما إنى أقضى بين الناس فى النهار ولا أقضى بينهم فى الليل فلأنى جعلت النهار لعمر وجعلت الليل لرب عمر

عندما علم أبو بكر بأن النبى يحدث الناس فى المسجد عن أنه أسرى به قال : أوقد قال ذلك ، لئن كان قال لقد صدق ، إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدقه فى الوحى يأتيه من السماء .

وصية عمر :

عندما طعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، تلك الطعنة القاتلة وأصبح إلى الموت أقرب منه إلى الحياة ، لم يشغله جرحه ودماؤه عن أمر المسلمين . قال رضى الله عنه: أوصى من يختارون بتقوى الله ، وشدة الحذر منه ، ومخافة مقته وأوصيه أن يخشى الله فى الناس ويخشى الناس فى الله ، وأوصيه بالعدل فى الرعية والتفرغ لحوائجهم وثغورهم ولا يؤثر غنيهم عن فقيرهم فإن ذلك سلامة لقلبه وحط لوزره وخير فى عاقبة أمره .

وآمره أن يشتد فى أمر الله وفى حدوده على قريب الناس وبعيدهم ، ثم لا تأخذه فى أحد رأفة حتى ينتهك منه مثلما انتهك من حرمة الله ، وليجعل الناس عنده سواء لا يبالى على من وجب الحق ، ثم لا تأخذه فى الله لومة لائم .

ليسا لك ولكنهما للمسلمين :

نقل ابن عبد ربه فى كتابه العقد الفريد : أن أبا سفيان زار ابنه معاوية فى الشام أيام ولايته عليها ، فلما رجع من عنده دخل على عمر بن الخطاب وهو أمير المؤمنين فقال له :

أجدنا (أعطنا) .

قال عمر: ما أصبنا شيئا فنجديك .

فأخذ عمر خاتم أبى سفيان وبعث به إلى هند زوجته وقال للرسول :

قل لها : يقول أبو سفيان : انظرى الخرجين اللذين جئت بهما من عند معاوية فأحضريهما فلم يلبث الرسول أن أتى بالخرجين وفيهما عشرة آلاف درهم فألقاها عمر فى بيت المال .

فلما ولى عثمان الخلافة أراد ردها إليه فقال أبو سفيان :

ما كنت لآخذ مالا عابه عمر عليَّ والله إن لنا حاجة لكن لا ترد على مَنْ قبلك فيرد عليك مَنْ بعدك .

قال معاوية لعمرو بن العاص رضى الله عنهما :

ما مبلغ دهائك .

قال عمرو : ما دخلت فى أمر إلا عرفت كيف الخروج منه .

قال معاوية : ولكنى ما دخلت فى أمر وأردت الخروج منه .

الإيثار :

قيل : إن عمر بن الخطاب صر أربعمائة دينار وقال لغلامه : اذهب بها إلى أبى عبيدة بن الجراح ثم تربص عنده فى البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع بها ، فتوجه الغلام إلى بيت أبى عبيدة وقال : يقول لك أمير المؤمنين عمر :

– اجعل هذه فى بعض حوائجك .

فقال : وصله الله ورحمه واسبغ عليه النعم .

ثم دعا بجاريته وقال : اذهبى بهذه السبعة إلى فلان ، وهذه الخمسة إلى فلان حتى أنفذها .

فرجع الغلام إلى عمر فأخبره فوجد قد عد مثلها لمعاذ بن جبل وقال له : انطلق بها إلى معاذ وانظر ما يكون فى أمره ، فمضى إليه وقال له مثل ما قال لأبى عبيدة .

ففعل معاذ كما فعل ابو عبيدة .
ورجع الغلام إلى عمر وحدثه بما رأى .

قال عمر : إنهم اخوة بعضهم من بعض .

العز بن عبد السلام :

لما أراد السلطان قطز فى مصر أن يفرض على الناس ضرائب جديدة يستعين بها فى قتال التتار ، اعترض عليه « عز الدين بن عبد السلام» وقال : إنه لا يجوز أن يؤخذ شيء من الرعية إلا بعد أن يبيع العلماء والأمراء ما عندهم من المطارف أولا .

وقال لأمراء المماليك : إن الملك الصالح قد اشتراهم من بيت المال ولذلك فلا يجوز لهم أن يحكموا مصر وهم أرقاء ولابد أن يعقد لذلك مجلس وينادى عليهم وبذلك يعتقون . وعارض الأمراء أولا ، ولكنه أصر وصمم ، فلما أصروا غضب الشيخ وحمل حوائجه على حمار وأركب عائلته حمارا آخر ، ومضى حتى بلغ خارج القاهرة ، هنالك لحق به العلماء والتجار فردوه ونادى على الأمراء واحدا واحدا وباعهم وقبض ثمنهم وصرفه فى وجوه الخير .

كان عنبسة بن سعيد بن العاص صديقا لعمر بن عبد العزيز قبل أن يلى الخلافة ، فلما وليها بعد وفاة سليمان بن عبد الملك ، دخل عليه صديقه عنبسة وقال له :

ـ إن سليمان كتب لك عطية ، ولم يبق إلا قبضها ، وقال : وأن ما بينى وبينك أعظم مما كان بينى وبين سليمان .

قال عمر : وما ذاك .

قال : عشرون ألف دينار .

قال عمر : ان عشرين ألف دينار تغنى أربعة آلاف بيت من المسلمين ، وادفعها إلى رجل واحد ، والله ما إلى ذلك من سبيل .

عمر بن العزيز :

دخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز فى المرض الذى مات فيه فقال :

– يا أمير المؤمنين ، إنك فطمت افواه ولدك عن هذا المال وتركتهم عالة ولابد لهم من شيء يصلحهم ، فلو أوصيت بهم إلى ، أو إلى نظرائك من أهل بيتك لكفيتك مئونتهم .

قال عمر : اجلسونى وادعوا إليَّ أبنائى .

فدعوهم وهم يومئذ اثنا عشر غلاما ، فجعل يصعد بصره فيهم حتى اغرورقت عيناه بالدمع ثم قال :

– بنفسى فتية تركتهم ولا مال لهم . يا بنى : إنى قد تركتكم من الله بخير ، إنكم لا تمرون على مسلم أو معاهد إلا ولكم عليه حق واجب . يا بنى مثلت رأيى بين أن تفتقروا فى الدنيا وبين أن يدخل أبوكم النار ، فكان أن تفتقروا فى الدنيا إلى آخر الأبد خيرا من دخول أبيكم يوما واحدا فى النار ، قوموا يا بنى ، عصمكم الله ورزقكم .

قال مسلمة : فما احتاج أحد من اولاد عمر ولا افتقر .

يحيى بن أكثم :

لما ولى المأمون يحيى بن أكثم قضاء البصرة ، وكان من أبناء نيف وعشرين سنة ، أراد بعض أهل البصرة أن يعيره بذلك ، ويضع منه . فقال : كم سن القاضى .

قال يحيى . سن عتاب بن أسيد حين ولاه رسول الله مكة .

الولاة :

وفد على أمير المؤمنين عمر بن العزيز : (بلال بن أبى بردة) فجعل يصلى ويطيل الصلاة .

فقال عمر للعلاء : ترى ذلك تصنعا .

قال العلاء : أنا آتيك بخبره يا أمير المؤمنين .

فأتى دار بلال بين العشاءين فوجده يصلى ، فقال له :

خفف فإن لى إليك حاجة ، فخفف وسلم .

قال : وما الحاجة .

قال له العلاء : تعرف منزلتى من أمير المؤمنين ومكانى فى نفسه ، فإن أنا أشرت عليه بك فى ولاية العراق فما تجعل لى !

قال : لك أجرتى لسنة وكان مبلغ ذلك عشرين ألف درهم .

فسأله العلاء أن يكتب له بذلك شرطا على نفسه ، فكتب له .

فأتى العلاء بالشرط إلى عمر فقال :

- إن بلالا قد غرنا بالله فكدنا نغتر .

سأل عمر بن عبد العزيز ابن أبى ملكية عن « عبد الله بن الزبير » فقال :

ما رأيت نفسا أثبت من نفسه ، مر حجر من المنجنيق (فى حصار الكعبة) وهو قائم يصلى بين جنبه وصدره ، فما خشع له بصره ولا قطع قراءته ولا ركع دون الركوع .

على بالسراج :

وفد على عمر بن عبد العزيز « بريد » من بعض الآفاق ، فانتهى إلى بابه ليلا ، واستأذن عليه فأذن له ، ودعا بشمعة غليظة فأوقدت ، وجعل يسأله عن أهل البلد حتى إذا فرغ عمر من مسألته قال الرجل :

- يا أمير المؤمنين ، كيف حالك فى نفسك وبدنك وكيف عيالك ؟

فنفخ عمر الشمعة فأطفأها وقال :

- يا غلام على بالسراج فلما جىء به قال للرجل :

سل عما أحببت ؟

وقال: ياعبد اللّه ، إن الشمعة التى رأيتنى أطفأتها هى من مال الله ومال المسلمين ، فكانت الشمعة بين يدى فيما يصلحهم ، وهى لهم ، فلما صرت لشأنى وأمر عيالى ونفسى أطفأت نار المسلمين .

قال عبد الله بن عباس :

دخلت على عمر حين طعن فقلت : أبشر بالجنة يا أمير المؤمنين . أسلمت حين كفر الناس وجاهدت مع رسول الله حين خذله الناس ، وقبض رسول الله وهو عنك راض ولم يختلف فى خلافتك اثنان وقتلت شهيدا .

قال : أعد على . فأعدت عليه فقال عمر :

– والله الذى لا إله إلا غيره لو أن ما فى الأرض من صفراء وبيضاء لى لافتديت به من هول المطلع .

درهمان كل يوم :

كان عمر بن عبد العزيز لا يأخذ من بيت المال شيئا ولا يجرى على نفسه من الفىء درهما . وكان عمر بن الخطاب يجرى على نفسه من ذلك درهمين كل يوم .

فقيل لعمر بن عبد العزيز :

– لو أخذت ما كان يأخذ عمر بن الخطاب .

قال : إن عمر الخطاب لم يكن له مال وأنا مالى يغنينى .

واشترى له رباح بن عبيدة قبل الخلافة رداء من خز مربع ذا أكمام بخمسمائة فاستخشنه وقال :

– لقد اشتريته خشنا جدا .

ثم اشترى له بعد الخلافة كساء بثمانية دراهم فاستلانه .

عبد الملك بن مروان :

دخل رجل على عبد الملك بن مروان فكان لا يسأله عن شيء إلا وجد عنده منه علما .

قال له أمير المؤمنين : أنى لك هذا .

قال الرجل : لم أمنع قط علما أفيده ، ولم أحتقر علما أستفيده ، وكنت إذا لقيت الرجل أخذت منه وأعطيت .

فليصحبني بخمس :

قال عمر بن عبد العزيز عندما ولي الخلافة :

من أراد أن يصحبني فليصحبني بخمس :

يدلني من العدل إلى مالا أهتدى إليه .

ويكون لي على الخير عونا .

ويبلغني حاجة من لا يستطيع إبلاغها .

ولا يغتاب عندي أحدا .

ويؤدى الأمانة التي حملها مني ومن الناس .

وقال علي بن أبي طالب : ما علمت أن أحدا من المهاجرين هاجر إلا متخفيا ، إلا عمر بن الخطاب فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه ، وتنكب قوسه ، وانتضى في يده أسهما ، واختصر عنزته (عصا لها زج كالرمح الصغير) ومضى قبل الكعبة والملأ من قريش بفنائها .

فطاف بالبيت سبعا متمكنا ثم أتى المقام فصلى ثم وقف على الحلق واحدة واحدة يقول لهم :

« شاهت الوجوه ، من أراد أن تثكله أمه وييتم ولده ، أو يرمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي » .

الحسنة بين السيئتين .

دخل عمر بن عبد العزيز على عبد الملك بن مروان يوما .

وكان معه بنوه فقال عبد الملك :

كيف نفقتك ؟

قال عمر : الحسنة بين السيئتين يا أمير المؤمنين .

قال عبد الملك : فما هما ؟

قال عمر: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما﴾.

الوليـد :

ورد فى الأخبار أن الوليد كان صاحب بناء وعمران فكان الناس يلتقون فى زمانه فيسأل بعضهم بعضا عن البناء والضياع ، وكان سليمان صاحب طعام وزواج ، فكان الناس يلتقون فيسأل بعضهم بعضا عن الطعام والزواج والطلاق ، وكان عمر بن عبد العزيز صاحب عبادة فكان الناس فى عهده يسأل بعضهم بعضا عن الصلاة والصيام .

وروى أنه لما جاء رسول عمر بن عبد العزيز يقول له :

– يا أمير المؤمنين : إن قومك بالباب يسألونك أن تجرى عليهم ، ما كان يجرى عليهم من قبلك .

قال عمر : والله ما هذا المال لى وما إلى ذلك من سبيل .

زياد وجاره :

دخل رجل من أشراف البصرة على (زياد) والى العراق فقال له زياد : أين مسكنك فى البصرة ؟ قال : فى وسطها . قال زياد : كم لك من الولد ؟قال: تسعة . فلما خرج من عنده قيل له : إنه ليس كذلك فى كل ما سألته وليس له من

الولد إلا واحدا وهو ساكن فى طرف البصرة ، فلما عاد إليه سأله زياد عن ذلك فقال :

– والله ما كذبتك ، لى تسعة من الولد قدمت منهم ثمانية فهم لى ، وبقى معى واحد فلا أدرى ألى يكون أم عَلَىَّ ومنزلى بين المدينة والجبانة ، فأنا بين الأحياء والأموات ، فمنزلى وسط البصرة .

قال زياد : صدقت .

وقيل: غضب زياد . فأمر بضرب عنق الرجل فقال له الرجل :

– أيها الأمير : إن لى بك حرمة .

قال وما هى ؟

قال : إن أبى جارك فى البصرة .

قال الأمير : من أبوك ؟

قال : والله لقد نسيت الآن اسم نفسى فكيف لا أنسى اسم أبى

فبرد غضب زياد ورد كمه على فمه وضحك وعفا عنه .

أخاف الله إن كذبت :

لما نصب معاوية بن أبى سفيان ابنه يزيد لولاية العهد ، أقعده فى قبة حمراء ، فجعل الناس يسلمون على معاوية ثم يميلون إلى (يزيد) حتى جاء رجل ففعل ذلك ، ثم رجع إلى معاوية ، فقال :

– يا أمير المؤمنين : إنك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها والأحنف ابن قيس جالس .

قال له معاوية : ما بالك لا تقول يا أبا بحر ؟ .

قال : أخاف الله إن كذبت ، وأخافكم إن صدقت .

قال : جزاك الله عن الطاعة خيرا .

وأمر له بالدف ، فلما خرج الأحنف لقيه الرجل فقال :

– يا أبا بحر ، إنى لأعلم أن شر من خلق الله هذا وأبوه ولكنهم قد استوثقوا من هذه الأموال ، بالأبواب والأقفال ، فلسنا نطمع فى استخراجها إلا بما سمعت .

قال الأحنف : يا هذا ، أمسك عليك ، فإن ذا الوجهين خليق ألا يكون عند الله وجيها .

الحاكم يتابع التاريخ البشرى :

كان معاوية إذا انفتل من صلاة الصبح جلس إلى القاص ، حتى يفرغ من قصصه ، ثم يدخل فيفتح مصحفه ويقرأ ، ثم يدخل إلى منزله فينظر فى بعض أمره ، ثم يصلى أربع ركعات ، وفى الضحى يخرج إلى مجلسه فيأذن لخاصته ، فيحدثونه ويحدثهم ويدخل عليه وزراؤه فيكلمونه فيما يريدون ، ثم يؤتى له بالغداء الأصغر ثم يخرج كرسيه إلى المسجد فيسند ظهره إلى المقصورة ويجلس على الكرسى فيقدم إليه الناس : الضعيف والأعرابى والصبى والمرأة ، ثم يدخل فيجلس على السرير ثم يقول :

ائذنوا للناس على قدر منازلهم فيدخل الناس فيقول لهم : ارفعوا إلينا حوائج من لا يصل إلينا .

وفى الليل يمضى صدرا منه فى أخبار العرب وأيامها وملوكها وسياستها لرعيتها ثم يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر التى فيها سير الملوك وأخبارها والحرب والمكائد فيقرأ ذلك عليه غلمان مرتبون

قال الشعبى :

كنت جالسا عند شريح القاضى إذ دخلت عليه امرأة تشتكى زوجها ، وهو غائب . وتبكى بكاء شديدا ، فقلت : أصلحك الله ، ما أراها مظلومة .

قال : وما علمك ، قلت : لبكائها .

قال : لا تفعل فإن إخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون .

صف لى عليا :

سأل معاوية بن أبى سفيان يوما رجلا من أصحاب على هو : ضرار بن حمزة فقال له : صف لى عليا :

قال ابن حمزة : اعفنى يا أمير المؤمنين .

قال معاوية : لابد من ذلك .

قال ابن حمزة : أما إذا كان لابد من ذلك فإنه كان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فضلا ، ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه ، يعجبه من الطعام ما خشن ومن اللباس ما قصر ، وكان والله مجيبا إذا دعوناه ، ويعطينا إذا سألناه ، وكنا والله على تقريبه لنا وقربه منا ، لا نكلمه ، هيبة له ، ولا نبتدئه لعظمة فى نفوسنا ، يبسم عن ثغر كاللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ويرحم المساكين ويطعم فى المسغبة ، يتيما ذا مقربة ، أو مسكينا ذا متربة ، ينصف اللهفان ويستوحش من الدنيا وزهرتها ويأنس بالليل وظلمته . وكأنى به وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه وهو فى محرابه قابض على لحيته يتململ تململ السليم يبكى بكاء الحزين ويقول :

يا دنيا غرى غيرى ، إلىَّ تعرضت أم إلىَّ تشوقت ، هيهات هيهات ، لا حان حينك ، قد أبنْتك ثلاثا لا رجعة لى فيك .

بكارة الهلالية :

أستأذنت بكارة الهلالية على معاوية بن أبى سفيان فأذن لها وهو يومئذ بالمدينة فدخلت عليه ، وكانت امرأة قد أسنت وغشى بصرها وضعفت قوتها ، ترعش بين خادمين لها ، فسلمت وجلست. فرد عليها معاوية السلام .

وقال : كيف أنت يا خالة ؟

قالت: بخير يا أمير المؤمنين .

قال معاوية: غيرك الدهر .

قالت : كذلك هو ذو غير ، ومن عاش كبر ، ومن مات قبر وذكَّرها معاوية بما كانت تقوله عنه فى حربه مع على .

ثم قال لها : اذكرى حاجتك .

قالت : أما الآن فلا ..

أبو هريرة :

كتب عمر إلى أبى هريرة وهو واليه على البحرين : يقول : استعملتك على البحرين وأنت بلا نعلين . ثم بلغنى عنك أنك ابتعت أفراسا بألف دينار وست مائة . فلما قدم أبو هريرة قال: كانت لنا أفراس تناتجت وعطايا تلاحقت .

قال عمر : قد حسبت لك رزقك ومؤنتك وهذا فضل فأدِّه ..

قال أبو هريرة : ليس لك .

قال عمر : بلى والله ، اوجع ظهرك

ثم قام اليه بالدرة فضربه حتى أدماه ثم قال :

– ائت بها .

قال : احتسبتها عند الله .

قال عمر : ذلك لو أخذتها من حلال وأديتها طائعا يا أبا هريرة .

دعها فإن الحق أنطقها

جلس المأمون يوما للمظالم ، فكان آخر من يقدم إليه – وقد هم بالقيام – امرأة عليها هيئة السفر ، فوقفت بين يديه وقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين .

فنظر المأمون إلى يحيى بن أكثم فقال لها يحيى : وعليك السلام يا أمة الله ، تكلمى فى حاجتك .

فقالت : عدا الوالى على أرضى فاغتصبها منى وحبسنى فأبعدنى عن أولادى . فأطرق المأمون حينا ثم رفع رأسه وقال لها :

– لقد ذهب صبرى وسال دمعى لما قلت .

والآن نذهب إلى صلاة العصر وغدا أحضرى معك خصمك وبعد أيام أحضرت خصمها فلما رآها المأمون سألها عن الخصم فقالت :

– الواقف إلى جانبك يا أمير المؤمنين وأشارت إلى العباس ابنه . فقال المأمون : يا يحيى خذه بيده وأجلسه معها فجلس الخصوم . وارتفع كلامهما على كلام العباس .

فقال لها يحيى : يا أمة الله : إنك بين يدى أمير المؤمنين وأنت تكلمين الأمير فاخفضى صوتك .

قال المأمون : دعها يا يحيى ، فإن الحق أنطقها وأخرسه ثم أمر برد ضيعتها إليها وأمر بكتاب إلى العامل ببلدها يعيد إليها ضيعتها ويحسن معاونتها وأمر لها بنفقة .

من أى الناس أنت ؟

كان المأمون فى الكوفة فركب للصيد ومعه سرية من العسكر فإذا هو بجارية عربية خماسية القد . وبعد أن حدثها قليلا قالت :

– يا فتى من أى الناس أنت ؟

قال : أو عندك علم بالأنساب ؟ قالت : نعم . قال لها : أنا من مضر الحمراء ، قالت : من أى مضر ؟ قال : من أكرمها نسبا ، وأعظمها حسبا ، وخيرها أما وأبا ، فمن تهابه مضر كلها ؟

قالت : أظنك من كنانة .

قال : أنا من كنانة ، قالت:فمن أى كنانة ؟ قال : من أكرمها مولدا وأشرفها محتدا وأطولها فى المكرمات يدا .

قالت : إذن أنت من قريش .

قال : أنا من قريش ، فأنت من أى قريش ، قال:من أجملها ذكرا وأعظمها فخرا ، قالت:أنت والله من بنى هاشم قال : أنا من بنى هاشم قالت:من أى بنى هاشم ؟ قال : من أعلاها منزلة وأشرفها قبيلة .

عند ذلك قالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين .

للهالحمد على ما أعطى وما أخذ :

قصد عروة بن الزبير الخليفة الوليد الذى جمع له الأطباء من كل مكان ، ليداووه من داء فى ساقه ، وكان أن قرروا قطع هذه الساق . ولكن كيف ؟ عرضوا عليه الخمر ليسكروه فلا يحس بالألم فرفض ، قال : لا أستعين على قضاء الله بمعصيته ، وأرادوه أن يشرب المرقد (البنج) فقال : لا . ولكنه قبل أن يقطعوا ساقه وهو يصلى .

قال لهم : سأدخل فى ذكر الله فإذا رأيتمونى استغرقت فشأنكم بها ، فلما رأوه استغرق قطعوا اللحم بالسكين المحماة بالنار حتى إذا بلغوا العظم نشروه بالمنشار ، وهو يكبر ، ثم عمدوا إلى تعقيم ساقه ، فحموا الزيت فى مغارف الحديد ، حتى إذا غلى كووه بها فأغمى عليه .

فلما أفاق من غشيته رأى ساقه فى أيديهم وقال : أما والذى حملنى عليك إنه ليعلم أنى ما مشيت بك إلى معصية قط .

وأدخلوا له رجلا ضريرا حتى لا يرى أن مصابه أعظم من مصاب غيره فقال :

اللهم إن كنت قد أخذت طرفا ، لقد أبقيت أطرافا ، ولله الحمد على ما أخذ وما أعطى .

وكان عروة من أعظم القواد محاربا ،وأعلم العلماء ، فقيها .

نحن أسراك :

أتى بجمله من الأسرى إلى معن بن زائدة الشيبانى ، فعرضهم على السيف فقال له بعضهم :

– أصلح الله الأمير ، نحن أسراك وبنا جوع وعطش فلا تجمع علينا السغب والقتل .

فأمر لهم بطعام وشراب فأكلوا وشربوا ومعن ينظر إليهم فلما فرغوا قال الرجل :

أصلح الله الأمير ، كنا أسراك ، ونحن الآن أضيافك ، فانظر ماذا تصنع بأضيافك .

قال : قد عفوت عنكم .

حج هارون الرشيد ذات عام وفيما هو يسعى : ثم رقى درجات الصفا ، فهتف به عبد الله بن عبد العزيز العمرى فقال : يا أمير المؤمنين : انظر بطرفك إلى البيت .

فنظر هارون وقال : قد فعلت . قال العمرى :

– كم من الناس ترى ؟

قال الرشيد : ومن يحصيهم إلا الله .

قال العمرى : اعلم يا أمير المؤمنين أن كل واحد من هؤلاء يسأل يوم القيامة عن خاصة نفسه ، وأنت وحدك مسئول عن الجميع فانظر كيف تكون . فبكى هارون .

الجواهر التى خطفها الطائر :

قصد جوهرى قادم من مدينة عدن بجواهر كثيرة إلى المنصور ابن أبى عامر فلما استقبله قال له :

– إن صرة الجواهر التى كنت أحملها قد اختطفتها عند الشاطىء حدأة .

فبعث المنصور يسأل فى محيط التجار عمن ظهرت عليهم علامات الثراء فجأة وسئل الرجل عن الجهة التى أخذ الطائر طريقه نحوها .

قال الرجل : إنه مر مشرقا على سمت هذا الجبل الذى يلى القصر فجىء بمشيخة أهل الرملة فأمرهم بالبحث عن الرجل .

فقالوا : ما نعلم إلا رجلا من ضعفائنا كان يعمل هو وأولاده بيننا ، وقد ابتاع اليوم دابة واكتسى هو وولده ، فأمر المنصور بإحضاره فاستدناه وقال له :

– شىء ضاع وسقط إليك ماذا فعلت به .

قال : هو ذا يا مولاى .

وضرب بيده إلى صرة سراويله فأخرجها بعينها فدهش التاجر .

غضب عبد الملك بن مروان يوما فاشتد غضبه وكان ابنه حاضرا فلما سكن غضبه قال له :

– يا أمير المؤمنين من قدر نعمة الله عندك وموضعك الذى وضعك الله به وما ولاك من أمر عباده أن يبلغ بك الغضب ما رأى .

قال : كيف ؟ قلت : فأعاد عليه كلامه .

قال عبد الملك : أما تغضب أنت .

قال : ما يغنى عنى جوفى إن لم أرد الغضب فيه حتى لا يظهر منه شىء .

اشهدوا أنى وهبت له هذا الملك :

كان السلطان نور الدين محمود يلعب الكرة فى دمشق ليروض خيله ويمرنها على الجهاد ، فرأى رجلا يحدث آخر ويشير بيده إلى نور الدين فأرسل إليه يسأله عن حاله .

قال : لى مع الملك العادل حكومة وهذا غلام القاضى . فألقى نور الدين الجوكان من يده وخرج من الميدان وسار إلى القاضى وهو حينئذ : كمال الدين المشهرزورى .

وأرسل إلى القاضى يقول :

– إننى قد جئت محاكما ، فاسلك معى ما تسلكه مع غيرى .. فلما حضر ساوى بينه وبين خصمه وحاكمه فلم يثبت عليه حق وثبت الملك لنور الدين .

فقال نور الدين حينئذ للقاضى ولمن حضر :

– هل ثبت لك عندى حق ؟

قالوا : لا .

قال : اشهدوا أنى قد وهبت له هذا الملك الذى حاكمنى عليه وهو له دونى ، وقد كنت أعلم أنه لاحق له عندى ، وإنما حضرت معه لئلا يظن أنى قد ظلمته .

هذا سعيد بن المسيب :

حج الوليد بن يزيد بن معاوية وهو خليفة ، وعمر بن عبد العزيز إذ ذاك والى مكة . فلما دخل المسجد ينظر فى بنائه وقد جدده عمر ، أخرج الناس منه إلا (سعيد بن المسيب) فقد بقى فى المسجد ما يجترئ أحد من الحرس أن يخرجه .

فقيل له : لو قمت ..

فأبى أن يقوم قبل الوقت الذى يقوم فيه .

قيل : لو سلمت على أمير المؤمنين .

فأبى أن يقوم إليه ..

فجعل عمر بن عبد العزيز يعدل بالوليد فى ناحية المسجد رجاء ألا يرى سعيدا حتى يقوم .

فحانت من الوليد نظرة إلى القبلة فقال :

– من ذلك الشيخ : أهو سعيد بن المسيب ؟

قال عمر : نعم ، ومن حاله كذا وكذا فلو علم بمكانك لقام فسلم عليك وهو ضعيف البصر .

قال الوليد : قد علمت حاله ، ونحن نأتيه .

فدار فى المسجد حتى أتاه فقال :

– كيف أنت أيها الشيخ ؟

فرد سعيد دون أن يبارح مكانه :

– بخير والحمد لله .

هذه قصورهم وتلك قبورهم :

التقى هارون الرشيد وهو خليفة فى طريقه إلى الحج بـ (بهلول) المجنون قرب الكوفة راكبا على قصبة وهو يعدو ، وخلفه عدد من الصبيان يطاردونه .

قال الخليفة لأصحابه : من ذلك ؟

قالوا : بهلول المجنون .

قال : اشتهى أن أراه فأتونى به غير مروع .

فجاءوا به فقال : السلام عليك يا بهلول .

قال بهلول : وعليك السلام يا أمير المؤمنين .

– كنت إليك فى اشتياق .

– ولكنى لم أشتق إليك .

– عظنى .

– وبم أعظك . هذه قصورهم وتلك قبورهم !

– أحسنت ، فزدنى .

– يا أمير المؤمنين : من رزقه الله مالا وجمالا ، فعف فى جماله وواسى فى ماله ، كتب فى ديوان الأبرار .

قال الرشيد : قد أمرنا أن تقضى ديونك .

قال بهلول : كلا والله ، لا يقضى دين بدين ، اردد الحق إلى أهله واقض دين نفسك ، أتظن أن الله يعطيك وينسانى !

ثم عدا على قصبته راكضا .

أربعة عشر يوما :

قال ابن خلدون :

وجد بخط (عبد الرحمن الناصر) رحمه الله أن أيام السرور التى صفت له دون تكدير كانت يوم كذا من شهر كذا ، من سنة كذا ، ويوم كذا من شهر كذا ، من سنة كذا ، وعدت هذه الأيام فكانت أربعة عشر يوما ، فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها . وتحليها بكمال الأحوال لأوليائها ، هذا الخليفة الناصر خلف السعود ، المضروب به المثل فى الارتقاء فى الدنيا والصعود ، ملكها خمسين سنة وستة أو سبعة أشهر وثلاثة أيام ، ولم تصف له إلا أربعة عشر يوما فسبحان ذى العزة القائمة والمملكة الدائمة : لا إله إلا هو .

قال أبو هريرة :

قدمت إلى عمر بثمانمائة ألف درهم .

فقال : إنك يمان أحمق ، إنما قدمت بثمانين ألفا .

وقالت له امرأته : ما نمت الليلة .

قال : كيف ينام عمر وقد جاء الناس مال لم يكن جاءهم قبله منذ كان الإسلام فلا يؤمن عمر لو هلك وذلك المال عنده لم يضعه فى حقه ..

الفصل الثالث

بطولة الحرب وإيمان الجهاد

يكشف التراث الإسلامى فى مجال الجهاد والحرب عن صفحات كريمة تفيض قوة وبطولة وأريحية ومروءة فى نفس الوقت ، فالمسلمون لا يرون الحرب إلا دفاعا عن دينهم وذودا عن كلمة لا إله إلا الله ، فإذا انتهت الحرب كانوا كراما وسماحا لا يغدرون ولا يغلون ولا يعرفون الظلم ، أو اللؤم ، وكل صفحات جهادهم آيات من الرحمة والإحسان والوفاء ، أما إنكار الذات فقد كان طابع البطولة لا يراد بها إلا وجه الله ولا يقصد بها إلى مطامع الدنيا ، أو الاستعلاء فى الأرض .

أبو محجن والبلقاء :

كان سعد بن أبى وقاص قائد المسلمين فى العراق قد حبس (أبو محجن الثقفى) الفارس البطل ، لأنه جاء يطلب الحد لأنه شرب الخمر ، وأصبح فى محبسه يوم القادسية ، فأخذ ينظر وهو فى قيده بشأن المسلمين ، فلما رأى ميمنة الجيش قد أصيب بضعف شديد ، طلب إلى زوجة سعد أن تطلقه ، وعاهدها أن يعود بعد المعركة فيربط نفسه فى القيد وكانت تعرف فروسيته فأذنت له .

ولما كان سعد مريضا يوم القادسية وقد أطل على الموقعة من مكان عال منبطحا على صدره ، فإن (أبا محجن) ركب البلقاء فرس سعد ، واندفع يزلزل كالصواعق وينصر المسلمين ، ونظر سعد وعجب .

وقال : يالله ، الضرب ضرب أبو محجن ، وهذه هى البلقاء ، ولولا أنه فى محبسه لظننت أنه هو ، فلما انتهت الموقعة عاد أبو محجن متسللا فوضع نفسه فى القيد ، فأرسل إليه سعد وعلم أنه هو ، فقال:يا أبا محجن ، لك على عهد الله ألا أضربك الحد أبدا بعد نصرك الله والمسلمين .

فأجاب أبو محجن : وأنا والله لن أشربها أبدا (أى الخمر) فقد كنت أشربها أنفة حتى لا تقول العرب : إني أخاف الحد ، وأنا اليوم أتركها رغبة فى أن يقولوا : « خاف الله »

أول خيله فى الصين وآخره فى منابت الزيتون :

عندما بلغ قتيبة بن مسلم حدود الصين على رأس جيش كثيف أرسل إلى ملكها وفدا على رأسه هبيرة .

فأعاده الملك ساخرا وقال له :

قولوا لصاحبكم ينصرف فإنى قد عرفت حرصه وقلة أصحابه وإلا بعثت عليكم من يهلككم .

قال هبيرة : كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون ، وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا وغزاك . أما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه .

هنالك بعث لهم الملك بتراب بلاده ليطأه قائدهم وبعض أولاده ليختمهم ودفع الجزية .

يريد أن يستبقى ماليس بباق :

عندما ظهر طاعون عمواس بين جند المسلمين فى الشام أرسل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبيدة بن الجراح قائد المسلمين يحتال عليه ليرده إلى المدينة .

فكتب إليه يقول :

« إنه قد عرضت حاجة عندنا لا غنى فيها عنك فإذا أتاك كتابى هذا فإنى أعزم عليك ان أتاك كتابى ليلا أن لا تصبح حتى تركب وإن أتاك نهارا أن لا تمسى حتى تركب إلىّ » .

فلما وصل إليه خطاب أمير المؤمنين ابتسم وقال : قد عرفت حاجته ، يرحم الله عمر ، إنه يريد أن يستبقى ما ليس بباق .

وأرسل إليه يقول :

« قد عرفت حاجتك التى عرضت لك فخل عزمتك يا أمير المؤمنين فإنى فى جندى ولا أرغب بنفسى » .

ومات أبو عبيدة مع جنوده فى هذا الوباء لما جاءه الموت قال لمن حوله : أن قولوا لعمر إنه لم يبق من أمانتى شىء إلا وقد قمت به وأديته إليه .

صاحب النقب :

حاصر مسلمة بن عبد الله حصنا فى معركة فتح دمشق ، فندب الناس إلى (نقب) منه فما تقدم إليه أحد ، كان من يتقدم يواجهه سيل من نبال العدو فيرتد ، ومضى وقت طويل والمسلمون يحاصرون الحصن دون أن يفتح لهم .

وفى يوم من الأيام ، شهد المسلمون رجلا نحيلا يتقدم مندفعا على فرسه لا يبالى وقع السهام التى انهالت عليه كالمطر ، حتى بلغ النقب وفتح الباب للمسلمين وكبر عاليا فاندفع المسلمون إلى داخل الحصن .

فلما انتهت المعركة ، نادى مسلمة يسأل عن صاحب النقب فلم يتقدم إليه أحد ، وظل كل يوم ينادى مناديه أن يتقدم صاحب النقب فلا يتقدم أحد .

عندئذ هدد الأمير وتوعد ، فإذا رجل نحيل ضامر يتقدم من خيمة القائد ويقول :

أنا أعرف صاحب النقب وأستطيع أن أدلكم عليه ، ولى شرط واحد أحب أن أجاب إليه .

قال الأمير : وما هو ؟

قال : ان لا تسألنى عن اسمى .

قال : لك ذلك ، أعاهدك .

قال : أنا هو ثم قام وخرج من الخيمة وذاب فى غمار الجيش .

فكان مسلمة لا يصلى بعدها صلاة إلا ويقول فى دعائه :

« اللهم احشرنى مع صاحب النقب »

من ماله أم من مال المسلمين :

عندما فتح خالد بن الوليد الشام جاءته وفود المهنئين : ومنهم الأشعث بن قيس الذى مدحه بقصيدة فأجازه خالد بعشرة الآف فلما علم عمر بن الخطاب بعث بلال بن رباح يحاكم خالدا ويسأله :

– أمن ماله أجاز الأشعث ، أم من مال المسلمين ؟

فإن زعم أنها من اصابة أصابها فقد أقر بذنبه وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف .

فذهب أبو عبيدة ودعا الناس إلى المسجد وحضر خالد عندئذ فعقله بلال بعمامته ونزع عنه قلنسوته وسأله :

يا خالد : أمن مالك أجزت بعشرة آلاف أم من إصابة أصبتها ؟ فلم يجبه ولما أكثر عليه وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئا : قال خالد : إنها من مالى .

فأطلقه وأعاد قلنسوته وعممه بيده ثم قال بلال لخالد معتذرا : نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا .

ثم أقام خالد متحيرا ، لا يدرى أمعزول هو أم لا .

وكتم أبو عبيدة عنه أمر عمر فلما بلغه خبر عزله من بعد ، عاتب أبا عبيدة فكان رده :

إنى والله ما كنت لأردعك ما وجدت لذلك أبدا .

وامعتصماه ! :

قال الرجل القادم للمعتصم :

يا أمير المؤمنين : كنت بعمورية فرأيت بسوقها امرأة عربية مهيبة جليلة تساوم روميا فى سلعة وحاول أن يتغفلها ففوتت عليه غرضه ، فأغلظ لها ، فردت

عدوانه بمثله ، فلطمها على وجهها لطمة فصاحت فى لهفة :

— « وامعتصماه » ..

فقال الرومى : وماذا يقدر عليه المعتصم وأنى له بى ؟

فأمر المعتصم بأن يستعد الجيش لمحاصرة عمورية فمضى إليها فلما استعصت عليه قال : اجعلوا النار فى المجانيق وارموا الحصون رميا متتابعا ففعلوا فاستسلمت ودخل المعتصم عمورية فبحث عن المرأة فلما حضرت قال لها :

هل أجابك المعتصم قالت : نعم .

فلما استقدم الرجل قالت له : هذا هو المعتصم قد جاء وأخزاك قال : قولى فيه قولك .

قالت : أعز الله ملك أمير المؤمنين بحسبى من المجد أنك ثأرت لى . بحسبى من الفخر أنك انتصرت فهل يأذن لى أمير المؤمنين فى أن أعفو عنه وأن أدع مالى له .

فأعجب المعتصم بمقالها

لأنت جديرة حقا بأن حاربت الروم ثأرا لك . ولتعلم الروم أننا نعفو حينما نقدر .

كتيبة الأهوال :

عندما وصل سعد بن أبى وقاص إلى شاطىء دجلة ، ومعه جند المسلمين ، وجدوا على مد البصر « المدائن » مدينة كسرى فى عظمتها ، وقصره الأبيض فى بهائه . ولما لم يجدوا معابر ، استقر الرأى على أن يعبروا على خيولهم وتقدم عاصم ابن عمر ومعه ستمائة من أهل النجدة فساروا حتى بلغوا شاطىء دجلة يريدون أن يعبروا أولا ليصلو إلى الشاطىء من الجانب الآخر .

فلما وجد رجاله يترددون تلا قوله تعالى :

﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ﴾ .

ثم رفع رأسه فاقتحم النهر ، واقتحمه زملأوه ، فلما رأى القعقاع بن عمرو الكتيبة الأولى تتقدم فى سبحها ونظر ، فإذا العدو من الجانب الآخر يتأهبون لردها ، أمر سائر أصحابه الستمائة فدفعوا خيولهم إلى النهر فدخلوه كما دخله عاصم وأصحابه ، وتولى العدو العجب لهذا الصنيع ، فلما رأوا عاصما وأصحابه يتوسطون النهر أرسلوا فرسانهم ليمنعوهم من الخروج ، وليقتلوهم فى الماء ورأى عاصم ذلك فقال لأصحابه :

– الرماح . الرماح ، أشرعوها وتوخوا العيون .

وخرجت كتيبة الأهوال سالمة .

يوم سمورة :

بعد أن فتح عبد الرحمن الناصر : مدينة (سمورة) امتطى صهوة جواده ، وانطلق متجولا فى ميادين القتال ، باحثا عن جريح يواسيه أو حزين يعزيه ، وبينما هو يمر تحت أسوار المدينة سمع نحيب طفل يبكى فأنصت ، ثم ترجل فإذا به امام « وليد » لا يزال فى لفائفه ، مطروحاً بين الأعشاب ، فالتقطه واحتضنه وأخفاه تحت عباءته..

ومضى حيث أقيم مضرب فسيح يستقبل فيه أصحاب البلاد وما كاد يصل حتى شقت صفوف الجند امرأة فاقدة الصواب ، وقد حلت شعرها ، ومزقت ثوبها وأرسلت صوتها بالنواح والعويل ، فما أن رأت (الناصر) حتى صرخت فيه قائلة :

– أعد إلىّ « ولدى » أهذا هو العدل الذى تحمله إلينا ، أين ولدى ، طفلى الرضيع الذى انتزع من بين ذراعى ، أتعيده إلى يا عبد الرحمن ؟

وهنا رفع عبد الرحمن رداءه عن الطفل الذى حمله معه .

وقال : انظرى ، أيكون هذا الطفل ولدك وكان الرضيع قد أحس أنه على مقربة من أمه ، فجعل يصرخ فرحا مسرورا فأرسلت المرأة صيحة سرور ، واندفعت نحو الطفل تغمره بالقبلات .

وكتب عبد الرحمن الناصر فى وصيته : أنه حكم الأندلس خمسين سنة ، منها أربعة عشر يوما يعدها الأيام السعيدة ومن هذه الأيام يوم سمورة .

نأويه أو نفديه :

عندما انتصر صلاح الدين فى معركة « حطين » ودخل بيت المقدس ظافرا أظهر تسامحا ولينا مقرونين بالشفقة ، إزاء رحيل الفرنجة ، حتى إنه ترك للصليبيين المدينة حتى لا يجرح شهورهم ووقف مناديه من مطلع الشمس إلى غروبها ينادى :

– هل أحد بغير مأوى فنأويه، أوعاجز عن دفع الفدية فنعطيه وعفا عن سبعة آلاف من العجزة ودفع بعضها من جيبه الخاص وسمح للفرنج المدنيين بأن يقيموا إذا شاءوا .

وحمل الكهنة والناس ذخائرهم من غير أن يتعرضوا لأى أذى بل قدمت الدواب لكثير من الذين لا يجدون ما يركبون .

وكان صلاح الدين فى خلقه وسلوكه مقتديا برسول الله وبصالح المسلمين ومن ذلك قوله لجنوده :

اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة بذممكم ، وإن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه إلا أنتم فإن وليتم بأنفسكم والعياذ بالله طوى البلاد طى السجل للكتاب واعلموا أن هذا عدو الله وعدونا ، قد وطىء أرض الإسلام ، وقد لاحت لوائح النصر عليه إن شاء الله .

قالوا : ليس لنا إلا رقابنا وهى بين يديك والله لا يرجع أحد منا عن نصرتك إلى أن نموت .

وكان صلاح الدين يقول :

إنه متى يسر الله فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائره واتبعتهم فيها .

ما فى جسدى شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة :

عندما حضرت خالد بن الوليد الوفاة قال :

طلبت القتل فى مظانه فلم يقدر لى إلا أن أموت على فراشى وما من عملى شىء أرجى بعد لا إله إلا الله من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين ، وأنا متترس ، والسماء تنهل علىَّ وأنا أنتظر الصبح حتى أغير على الكفار فعليكم بالجهاد .

لقيت كذا وكذا زحفا وما فى جسدى شبر إلا وفيه ضربة بسيف ، أوطعنة برمح ، وها أنذا أموت على فراشى حتف أنفى ، كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء .

إذا أنا مت فانظروا فى سلاحى وفرسى فاجعلوه فى سبيل الله .

وفقد خالد بن الوليد قلنسوته يوم اليرموك فقال :

– اطلبوها .

فبحثوا ونظروا ، فلم يجدوها فما زال بهم يأمرهم، ويلح فى طلبها حتى وجدوها ، فإذا هى خلقة لا تساوى شيئا فسئل عن ذلك فقال : اعتمر النبى ﷺ فحلق رأسه فابتدر الناس شعره فسبقتهم إلى ناصيته فجعلتها فى هذه القلنسوة فلم أشهد قتالا وهى معى إلا تبين لى النصر .

والله لو أعلم أن وراءك أرضا :

وقف عقبة بن نافع على شاطىء المحيط ودفع حوافر فرسه فى البحر حتى كاد يغمره الماء وهو يتطلع إلى المحيط فى اتساعه ولا نهائيته وقال كلمته الخالدة :

« والله لو أعلم أن وراءك أرضا لذهبت إليها غازيا فى سبيل الله » .

وكان عقبة قد مضى فى عشرة آلاف يزحف ويخترق تونس والجزائر والمغرب متنقلا من نصر إلى نصر إلى نصر حتى وصل طنجة ، هنالك وقف عقبة ، فأخذ ينظر إلى الشاطىء الآخر حيث تستوى أسبانيا ، وفكر فى اقتحام البوغاز ولكنه

فضل أن يتجه جنوبا إلى بلاد السوس الأدنى ثم سار متجها غربا يفتح البلاد حتى وصل إلى شاطىء المحيط ، وكانت لحظة رهيبة فى حياته .

ما رأيت ما ترون إلا بالأقلام :

عندما خرج أسد بن الفرات فى عشرة آلاف مقاتل إلى ثغر سوسة ، ليغزو جزيرة صقلية . خرج الأمير وأهل العلم ووجوه الناس وأعيان الأمة لتوديعه .

فوقف أسد السفينة وقال :

– لا إله إلا الله وحده لا شريك له . يا معشر المسلمين ، ما ولى لى أب ولا جد ولاية قط ، وما رأى أحد من سلفى هذا قط وما رأيت ما ترون إلا بالأقلام .

فاجهدوا أنفسكم فى طلب العلم وتدوينه وكابدوا عليه واصبروا على شدته فإنكم تنالون به الدنيا والآخرة .

اقتحام المفازة :

عندما أراد خالد بن الوليد أن يقصد إلى الشام فى جيشه لمواجهة الروم ، اختار الطريق الأشق ، والتمس رافع بن عميرة الطائى دليلا له فلما جاءه قال له :

– إنك يا خالد لن تطيق ذلك بالخيل والأنفال ، والله إن الراكب المنفرد يخشى فيها على نفسه . إنها خمس ليال لا يصاب فيها ماء .

قال خالد : لابد من ذلك فمر بأمرك .

قال : استكثروا إذن من الماء فمن استطاع أن يصر أذن ناقته على ماء فليفعل فإنها المهالك إلا ما دفع الله .

وطلب إلى خالد أن يجيئوه بإبل سمان فلما جاءوه بها عمد إليها فاظمأها حتى إذا بلغ بها العطش مبلغه أوردها الماء عللا بعد نهل فلما امتلأت صرأذنها وشد مشافيرها لئلا تجتر .

وانطلق خالد بالجيش يتقدمه رافع ، خلال خمسة أيام يسيرون فى وحشة الصحراء ، وينزلون كل يوم فيأكل الرجال ، ويشربون مما معهم من الماء ثم يشقون بطون عدد من الأبل التى اتخذوها خزانات ، ويخرجون الماء منها ، ويسقون الخيل حتى بلغوا آمنين .

سأل المقوقس حاكم مصر عن المسلمين عند دخولهم ، فقال له أحد رجاله :

رأيت قوما الموت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة وليس لأحد منهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ، جلوسهم على التراب وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف كبيرهم من صغيرهم ، ولا السيد من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ، ويخشعون فى صلاتهم .

كل رجل بألف :

عندما حاصر عمرو بن العاص حصن بابليون ، واستمر الحصار زمنا بعث إلى عمر بن الخطاب يطلب إمداده بأربعة آلاف مقاتل ، فأرسل إليه عمر أربعة رجال . وقال: إن كل واحد منهم بألف هم الزبير بن العوام ، وعبادة بن الصامت ، والمقداذ بن أسود ، ومسلمة بن مخلد .

وعندما حاصر خالد بن الوليد مدينة الحيرة ، طلب من أبى بكر مددا فأمده برجل واحد هو القعقاع بن عمرو .

وقال : لا يهزم جيش فيه مثله .

روى الحسن بن سفيان فى مسنده عن الحسين بن السائب :

قال : لما كانت ليلة العقبة أو ليلة بدر .

قال النبى صلى الله عليه وسلم لمن معه :

– كيف تقاتلون ؟

فقام عاصم بن ثابت ، فأخذ القوس والنبل وقال :

– إذا كان القوم قريبا من مائتى ذراع كان الرمى ، وإذا دنوا حتى تنالهم الرماح كانت المداعسة حتى تقصف فإذا تقصفت وأخذنا بالسيوف كانت المجالدة قال النبى صلى الله عليه وسلم :

– هكذا نزلت الحرب من قاتل فليقاتل كما قاتل عاصم .

أطأ الجنة بعرجتي هذه :

علم (عمرو بن الجموح) وكانت ساقه مكسورة أن أبناءه خارجون للقتال ، فى سبيل الله ، فخرج يسبقهم فوقفوا جميعا فى وجهه يمنعونه ذلك ويقولون :

– أما يكفيك حين نجاهد عنك ، أن الله يعذرك لساقك المكسورة فصاح فيهم : لماذا تمنعونى من دخول الجنة .

وقدم النبى يسأله دعوة الشهادة فلما دعا له الرسول رفع يديه وقال : اللهم لا ترجعنى إلى أهلى خائبا .

وقال : يا رسول الله : أئذا استشهدت فى سبيل الله أدخل الجنة بعرجتى هذه ؟ قال النبى : بل تدخل الجنة صحيحها فذهب يقاتل حتى استشهد .

قال النبى : والله لكأنى أرى عمرو بن الجموح يمشى بعرجته هذه سليما فى الجنة إن من الأنصار من لو أقسم على الله لأبره ومنهم :

عمرو بن الجموح .

ما ضرهم ألا يعرفهم عمر ولكن الله يعرفهم :

لما كانت الليلة التى دخل فيها المسلمون (نهاوند) وهى فتح الفتوح فى فارس ، خرج عمر إلى خارج المدينة يلتمس الأخبار ، وقد أمعن فى الطريق الذى يؤدى إلى فارس ، ومعه أصحابه ، فبصروا من بعد براكب توسم عثمان بن عفان أنه السائب بن الأقرع فلما دنا منهم وسلم .

سأله عمر عما وراءه فقال : البشرى والفتح .

قال عمر : ماذا فعل النعمان : (أى النعمان بن مقرن) .

قال : زلت فرسه فى دماء القوم فصرع فاستشهد .

قال عمر : إنا لله .

ولم يتمالك أن بكى حتى نشج ، فلما سكنت ثورة الحزن سأل عمر عمن قتل من المسلمين فذكر له أعيان الناس وأشرافهم .

ثم قال : وآخرون من أفناء الناس لا يعرفهم أمير المؤمنين .

قال عمر : ما ضرهم ألا يعرفهم عمر ، لكن الله يعرفهم وقد أكرمهم بالشهادة .

دخل بشار بن برد على الخليفة المهدى وعنده خاله يزيد بن منصور الحميرى فأنشده قصيدة فلما أتمها قال له يزيد :

– ما صناعتك ياشيخ ؟

قال بشار : أثقب اللؤلو .

قال : أتهزأ بى ؟ قال : فما يكون جوابى لمن يرى شيخا أعمى ينشد شعرا فيسأله عن صناعته .

أنا له يا رسول الله :

فى موقعة الخندق خرج عمرو بن ود العامرى مقنعا بالحديد ينادى جيش المسلمين : من يبارز فصاح على بن أبى طالب : أنا له يا رسول الله . قال النبى : إنه عمرو ، اجلس ، ثم عاد عمرو ينادى :ألا رجل ، وجعل يؤنبهم قائلا : أبن جنتكم التى زعمتم أنكم داخلوها إن قتلتم ، أفلا تبرزون إلى رجلا فقام على مرة بعد مرة ، وهو يقول : أنا له يا رسول الله ، ورسول الله يقول له : اجلس إنه عمرو وهو يجيبه : وإن كان عمرا .. حتى أذن له فمشى إلى عمر بن ود ، فنظر إليه عمرو فاستصغره وقال له : من أنت ؟ قال : أنا على بن أبى طالب .

قال : أنى أكره أن أريق دمك .

قال على : لكننى والله لا أكره أن أريق دمك .

فغضب عمرو وأهوى إليه بسيفه ، واستقبل على الضربة بترسه فقده السيف وأصاب رأسه ، ثم ضربه على حبل عاتقه فسقط ونهض ، وسقط ونهض .

وثار الغبار فما انجلى إلا عن عمرو صريعا وعلى واقف بجانبه يهلل ويكبر .

لا فرق عندى بين قائد وجندى :

بعد أن انتصر خالد بن الوليد فى معركة اليرموك جاءه من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كتاب يأمره فيه باعتزال القيادة وتولية أبى عبيدة بن الجراح مكانه فما كان من خالد إلا أن امتثل وأطاع وتقدم من أبى عبيدة مهنئا إياه بالقيادة وقال :

لا فرق عندى بين أن أكون قائدا ، أو جنديا فى جيش المسلمين كنت آمرك فتطيعنى ، واليوم تأمرنى فأطيعك .

حسام الدين لؤلؤ :

بينما تدور المعارك بين المسلمين والصليبيين إذا بصاحب الكرك – وهو من ألد أعداء المسلمين – يفكر فى مهاجمة المسلمين من البحر الأحمر ، وقد اتجهت سفنه إلى حصن (أيلة) لمحاصرته ، فأحرق ستة عشر مركبا من مراكب مصر وأحرق أطعمة كثيرة كانت معدة لمكة والمدينة .

وأرادت الحملة أن تقطع طريق الحاج ، وأن تمضى إلى المدينة لنبش قبر الرسول ، ونقل جسده الشريف إلى بلادها ، فلا يتمكن المسلمون من زيارته ، فلما وصل الخبر إلى مصر أرسل صلاح الدين « حسام الدين لؤلؤ » فى جنود كثيفة ، فانقض على محاصرى (أيلة) انقضاض العقاب وقتلهم شر قتلة ، وأوقع بمراكبهم فلما فروا انطلق خلفهم وحاصرهم فى شعاب لا ماء فيها حتى استسلموا ، وقتل أغلبهم وكان حسام شجاعا خبيرا عالما بالبحر والقتال فيه ، وقد سار النصر فى ركابه أينما سار .

قام منصور بن عمار يحض على القتال ، وكان بين السامعين امرأة ، فطرحت رقعة كتبت فيها : رأيتك يا ابن عمار تحض على الجهاد ، وقد ألقيت

(ذؤابتى) ضفائر شعرها - فلست أملك والله غيرها فبالله اجعلها قيد فرس غاز فى سبيل الله ، فعسى الله أن يرحمنى .

فارتج المجلس بعد قراءة هذه الرقعة بالبكاء .

وثارت الحماسة فى النفوس .

خولة بنت الأزور :

عندما أسر (ضرار بن الأزور) فى معارك المسلمين مع الروم يوم (أجنادين) لم تلبث أخته (خولة بنت الأزور) أن مضت تحرض النساء على اقتحام المعركة لتخليصه من الأسر ، ولما لم يكن معهن سلاح اقتلعن أعمدة الخيام وأوتادها وحاربن بها الروم تحت قيادة (خولة) التى تنكرت فى زى فارس ، وامتطت جوادها وعليها ثياب سود وعمامة خضراء، ولبست سلاحها واخترقت صفوف الأعداء فظنوها فارسا ملثما ، فقتلت منهم عددا كبيرا ، وكان خالد بن الوليد وصحبه ينظرون إليها فى دهشة وإعجاب ، ويتساءلون : من هذا الفارس العجيب .

وفى اليوم التالى سألها خالد : من تكون !

فكشفت قناعها ، فعرف أنها خولة ، هنالك اشتعلت الحماسة فى النفوس وتقدموا فى شجاعة حتى فكوا أسر أخيها ، وعادت الحرب مرة أخرى ، وأسر ضرار بن الأزور ، مرة أخرى فاندفعت خولة مصممة على الانتقام من الروم ، واقتحمت صفوف الأعداء باحثة عنه فلم توفق فى العثور عليه ، فلما تقدم خالد فى المعركة نحو (حمص) علم أن ضرارا وقع فى الأسر بعد أن قتل من الروم عددا عظيما وأنه فى طريقه إلى حمص يحرسه مائة فارس ، فدفع خاله رافع بن عميرة فى مائة من الفرسان العرب طالبا منهم أن يلحقوا بهم ويخلصوا ضرارا ، وعلمت خولة فطلبت إلى خالد أن يأذن لها بأن تذهب معهم فقال : إن الليل قد أوغل وأخشى أن يصيبك سوء ولكنها سارت فى قوة تسابق الريح ، وانقضت على القوم كالصاعقة وخلصت أخاها .

اللهم اجعلني أول شهيد :

أرسله سعد بن أبى وقاص فى فتح فارس إلى (يزدجرد) أمير فارس فخاطبه فى صراحة وقوة وكسرى يستمع إليه مأخوذا ، فأراد كسرى أن يذله فحمله التراب ، فرجع به إلى سعد فرحا وهو يقول : لقد جئتك بأرضهم وقد صدق الله حدسه . وعندما قاد المسلمين فى معركة نهاوند الفاصلة حمل رايته وكبر تكبيراته الثلاث ، واندفع فى قوة فوق فرسه ، وقال : إنكم بين خيرين تنتظرون إحدى الحسنيين من بين شهيد حى مرزوق ، أو فتح قريب وظفر يسير ، فإذا قضيت أمرى فاستعدوا فإنى مكبر ثلاثا ، فإذا كبرت الأولى فليتهيأ من لم يكن قد تهيأ ، وإذا كبرت الثانية فليشد عليه سلاحه ، وليتهيأ للنهوض ، فإذا كبرت الثالثة فإنى حامل إن شاء الله فاحملوا معى ثم رفع يديه وقال :

اللهم أعز دينك وانصر عبادك واجعل النعمان أول شهيد فى هذه المعركة .

وقد صدق الله دعوته فما كاد يندفع مقاتلا يطيح الرقاب بسيفه البتار ويخوض فى موج دافق من الدماء ، حتى انزلق زلفة انتهزها أحد الأعداء بسيفه فهوى صريعا : ذلك هو النعمان بن مقرن بطل معركة نهاوند .

أما رسول الله فصالح :

عادت هند بنت عمرو بن حزام بعد معركة أحد وقد استشهد فيها زوجها وأخوها وابنها، فاستقبلها الناس يسألون عن المعركة ونتائجها فقالت :

أما رسول الله فصالح ، وكل مصيبة بعده جلل ، واتخذ الله من المؤمنين شهداء « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا » .

روى أن عبيد الله بن عتبة بن مسعود وهو أحد فقهاء المدينة السبعة ، باع دارا بثمانين ألف درهم .

فقيل له : لو اتخذت لولدك من هذا المال ذخرا .

فقال : أنا أجعل هذا المال ذخرا لى عند الله تعالى . وأجعل الله سبحانه ذخرا لولدى .

ثم تصدق رحمه الله بالمال كله .

روى الحافظ بن عساكر أن حبيب بن مسلمة قدم على عمر بن الخطاب فى حجه وكان حبيب تام القامة فسلم على عمر فقال له :

– إنك لفى قناة رجل .

قال : أى والله وفى سنانها .

قال عمر : افتحوا له الخزائن فليأخذ ما يشاء ففتحوها له فعدل عن الأموال وأخذ السلاح .

الفصل الرابع

ورع الفقهاء والقضاة

يقول جوستاف لوبون : ما عرفت البشرية أعدل من المسلمين، ولا ريب أنها كلمة حق ، فإذا رأينا صور الفقهاء واستعرضنا مواقف القضاة آمنا حقا بأن العدل أساس الملك وأن الله ينصر الذين يقيمون العدل ويقسطون فى الحكم . ولقد كان فقهاء المسلمين أمناء على الشريعة صادقين مع ربهم وأنفسهم ، فى مواجهة الملوك والحكام ، لا يخافون ولا يهابون ، يقولون كلمة الحق فى وجه كل باغ وظالم .

وكانوا علماء أعلاما وجدوا لكل أمر مخرجا ولكل مسألة جوابا ولكل مشكلة حلا ، عقول نافذة وقلوب مؤمنة ، لا ترجوا غير رضاء الله وقد أضاء الله لها القلوب والعقول والنفوس فعرفت الحق ومضت إليه غير وانية .

هل ضيعناك ؟

كان للإمام أبى حنيفة جار إسكاف بالكوفة يعمل نهاره فإذا جاء الليل رجع إلى منزله فينام على سطح منزله وينشد :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

ولا يزال يشرب ويردد البيت إلى أن يغلبه النوم ، وكان الإمام يستمع إليه كل ليلة ، ثم افتقده ذات ليلة فسأل عنه فقيل أخذه العسس وهو محبوس ، فذهب الإمام فطلبه فأفرج عنه فأخذه معه وقال له : أترانا أضعناك .

قال : لا بل حفظت ووعيت جزاك الله خيرا من صحبة الجوار ولله على أن لا أشرب بعدها خمرا .

ساوم عمر رجلا مرة على فرس يريد أن يشتريه منه ، فركبه ليجربه فعثر الفرس وكسرت ساقه .

فقال عمر : خذ فرسك فأبى الرجل .

فطلب منه عمر أن يختار حكما يتخاصمان أمامه ، فاختار صاحب الفرس (شريحا) فتحاكما إليه فقال :

– يا أمير المؤمنين ، خذ ما ابتعت أورد كما أخذت .

قال عمر : وهل القضاء الا هكذا فسر إلى الكوفة ، وعينه قاضيا بها .

قوموا إلى هذا الفتى المطلبى :

قيل إن الإمام الشافعى كان يجلس للعلم فى حلقته إذا صلى الصبح فيجيئه أهل « القرآن » فيسألونه .

فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل « الحديث » يسألونه فإذا ارتفعت الشمس قاموا ، ..

ثم تستوى الحلقة للمناظرة والمذاكرة ، فإذا ارتفع النهار تفرقوا ، ثم جاء أهل اللغة والعروض والشعر والنحو حتى يأتى المساء والشافعى جالس فى حلقته وقيل : إن صوته كان أشبه بالصنج أو الجرس ، وكان إذا قرأ القرآن التف حوله الناس وعجوا بالبكاء وقال بعض أتباعه :

كنا إذا أردنا أن نبكي قلنا : قوموا إلى هذا الفتى المطلبى الذى يقرأ القرآن ، فإذا أتينا استفتح القرآن فتساقط الناس بين يديه وكثرعجيجهم بالبكاء من حسن صوته .

وقال الشافعى : لما حفظت القرآن دخلت المسجد أجالس العلماء وأحفظ الحديث وكان منزلنا بمكة فى شعب الخنيف وكنت فقيراً بحيث لا أملك ما أشترى به القراطيس فكنت آخذ العظم وأكتب فيه ، حتى ملأت حجرة كبيرة بهذا العظام ثم صبرت على نفسى عاما كاملا فحفظت ما كتبت على هذه العظام عن ظهر قلب وقال فى ذلك شعرا .

علمى معى أينما يممت ينفعنى ... قلبى وعاء له لا بطن صندوق
إن كنت فى البيت كان العلم فيه معى ... وإن كنت فى السوق كان العلم فى السوق

ما أتت شيئا بغير علم :

كان الإمام البخارى يقوم من الليل مرات متعددة ، ويأخذ القداحة فيورى نارا ويسرج ، ثم يخرج أحاديث فيعلم عليها ثم يضع رأسه .

قيل : وفى ليلة كان البخارى قد تعب من تصنيف كتاب التفسير فاستلقى على قفاه .

فقال له محمد بن حاتم : سمعتك يوما تقول :

– إنى ما أتيت شيئا بغير علم قط ، منذ عقلت ، فأى علم فى هذا الاستلقاء .

قال البخارى : لقد أتعبنا أنفسنا اليوم ، وهذا ثغر من الثغور ، خفت أن يحدث حدث من أمر العدو ، فأحببت أن أستريح وآخذ أهبة ذلك .

قال جعفر بن الربيع :

أقمت مع أبى حنيفة خمس سنين فما رأيت أطول صمتا منه ، فإذا سئل عن الشيء من الفقه تفتح وسال كالوادى .

وعن أبى يوسف قال :

بينما أنا أمشى مع أبى حنيفة إذ سمعت رجلا يقول لرجل :

– هذا أبو حنيفة لا ينام الليل .

قال أبو حنيفة : لا يتحدث عنى بما لم أفعل ، فكان يقوم الليل بعد ذلك .

ناشدتك الله ألا تفعل :

لقى الخليفة « المنصور » إمام دار الهجرة (مالك بن أنس) فى موسم الحج فقال له : إنه لم يبق عالم غيرى وغيرك ، أما أنا فقد اشتغلت بالسياسة ، وأما أنت فضع للناس كتابا فى الفقه ، تجنب فيه رخص ابن عباس ، وتشديدات ابن عمر ، وشواذ ابن مسعود ، ووطئه توطيئا .

قال : فعلمني كيفية التأليف .

فلما عاد فى الموسم التالى واجتمع به قال المنصور :

– إنى عزمت أن آمر بكتبك هذه التى وضعت – يعنى الموطأ – فتنسخ نسخا ثم تبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين نسخة ، وآمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدوها إلى غيرها .

قال له مالك : ناشدتك الله أن لا تفعل ، فإن الناس قد سبقت لهم أقاويل وسمعوا أحاديث ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم ، وعملوا به ودانوا به من اختلافات أصحاب رسول الله ، وإنَّ ردَّهُم عما اعتقدوا شديد ، فدع الناس وما هم عليه .

ردوا على حافظة كتبى :

قال الإمام الغزالى :

قطعت علينا الطريق وأخذ اللصوص جميع ما معى ومضوا فتبعتهم فالتفت إلى رئيسهم وقال :

– ارجع وإلا هلكت .

قلت له : أسألك بالله أن ترد على جافظة كتبى فما فيها شىء تنتفعون به .

قال لى : وما هى ؟ قلت : كتب فى المخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها ، فضحك وقال :

– كيف تدعى أنك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم .

ثم أمر بعض أصحابه فسلم إلىَّ الحافظة .

فلما وافيت « طوس » أقبلت على الاشتغال بالعلم ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما بها وصرت بحيث لو قطعت على الطريق لم أتجرد من علمى .

مر عبد الله بن عمر بن الخطاب براع مملوك ومعه غنم سيده فأراد أن يمتحن أمانته فقال له :

– هل من جزرة (شاة تصلح لأن تجزر) .

قال الراعى : ليس هاهنا ربها .

قال ابن عمر : تقول له « إن الذئب أكلها » .

قال الراعى : اتق الله .

دهاء القاضى إياس :

كان إياس بن معاوية القاضى من أكابر العقلاء ، وكان عقله يهديه إلى سلوك طرق الذكاء والرجحان .

وكان فى زمانه رجل مشهور بين الناس بالأمانة فاتفق أن رجلا أراد أن يحج فأودع عند ذلك الرجل الأمين كيسا فيه جملة من الذهب ثم حج فلما عاد من حجه جاء إلى ذلك الرجل وطلب كيسه منه ، فأنكره وجحده ، فجاء إلى القاضى إياس وقص عليه القصة .

قال القاضى : هل أخبرت بذلك أحدا غيرى .

قال : اللهم لا .

قال : فهل علم الرجل أنك أتيت إلىَّ ؟

قال : اللهم لا .

قال إياس : فانصرف واكتم أمرك ، ثم عد إلىَّ بعد غد ، فانصرف ، ثم إنَّ القاضى دعا ذلك الرجل المستودع فقال له :

– حصل عندى أموال كثيرة ورأيت أن أودعها عندك فاذهب وهيىء لها موضعا حصينا .

فمضى ذلك الرجل ، وحضر صاحب الوديعة بعد ذهاب الرجل ، فقال : له القاضى إياس : امض إلى خصمك واطلب منه وديعتك فإن جحدك فقل له امض معى إلى القاضى اياس أتحاكم أنا وأنت عنده .

فلما جاءه الرجل دفع إليه وديعته .

قال : أنا الحجاج :

خرج الحجاج يوما متنزها فلما فرغ من نزهته صرف عنه أصحابه وانفرد ، فإذا بشيخ من بنى عجل فقال له :

– من أين أيها الشيخ ؟

قال : من هذه القرية .

– كيف ترون عمالكم ؟

قال : شر عمال ، يظلمون الناس ، ويستحلون أموالهم .

قال : وكيف قولك فى « الحجاج » ؟

قال : ذاك ما ولى العراق شر منه ، قبحه اللّه وقبح من استعمله .

قال : أتعرف من أنا ؟

قال : لا .

قال : أنا « الحجاج » .

قال الرجل : جعلت فداك أو تعرف من أنا ؟

قال : لا .

قال: فلان بن فلان ، مجنون بنى عجل ، أصرع كل يوم مرتين .

فضحك الحجاج وأمر له بصلة .

قال الوالى زياد لحاجبه عجلان :

إنى وليتك هذا الباب وعزلتك عن ثلاث :

عزلتك عن هذا المنادى إذا دعا للصلاة فلا سبيل لك عليه .

وعزلتك عن طارق بليل فشر ما جاء به ولو جاء بخير ما كنت فى حاجته وعن رسول صاحب الثغر فإن إبطاء ساعة يفسد تدبير سنة .

هل أضل هؤلاء :

عندما سجن الإمام أحمد بن حنبل فى محنته جاءه المروزى تلميذه وقد طال به الإصرار على رأيه ، والتعذيب فقال له :

– هؤلاء قدموك للضرب والله يقول : ولا تقتلوا أنفسكم . قال يا مروزى : اخرج فانظر ، قال المروزى : فخرجت ونظرت فى وجه دار الخليفة فرأيت خلقا كثيرا والصحف والأقلام بين أيديهم ، فقلت : أى شىء تعلمون ؟

قالوا : ننتظر ما يقول أحمد فنكتبه .

فرجع إليه وأخبره . فقال :

أأضل هؤلاء ! كلا .

بل أموت ولا أضلهم .

قال المروزى : رجل هانت عليه نفسه فى سبيل الله .

اقض بيننا . قال : قضيت :

دخل رجل على القاضى يخاصم زوجته فقال :

السلام عليكم قال : وعليكم ، قال : إنى رجل من أهل الشام

قال القاضى : بعيد سحيق . قال الرجل :

وإنى قدمت إلى بلدكم هذا .

قال القاضى : خير مقدم .

قال الرجل : وإنى تزوجت امرأة ، قال القاضى . الرفاء .

قال الرجل : وإنى ولدت غلاما قال القاضى : لتهنأ بالفارس .

قال الرجل : وكنت شرطت لها صداقها .

قال القاضى : الشرط أملك .

قال الرجل : وقد أردت الخروج من بلدى .

قال القاضى : الرجل أحق بأهله .

قال الرجل : فاقض بيننا .

قال القاضى : قد قضيت .

من عرفنى فقد عرفنى :

خرج أبو الحسن الأشعرى من عزلته .

ووقف فى مسجد البصرة بعد الصلاة الجامعة على أريكة عالية وقال :من عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فأنا أعرفه بنفسى ، أنا فلان بن فلان كنت أقول بخلق القرآن وأن الله لا تراه الأبصار وأن أفعال الشر أنا أفعلها وأنا تائب مقلع ، يا معاشر الناس انما تغيبت عنكم هذه المدة لأنى نظرت فتكافأت عندى الأدلة ، ولم يترجح شيء على شيء ، فاستهديت بالله فهدانى إلى اعتقاد ما أودعته فى كتبى هذه ، وقد انخلعت عن جميع ما كنت أعتقده كما انخلعت من ثوبى هذا وشق أبو الحسن الأشعرى ثوبه ورمى به .

وكان قد تبين للأشعرى بعد أربعين سنة من الاعتزال خطل المذهب ، وأنه لا يطابق حاجات الإنسان الراغب إلى الرحمة والمغفرة ، وقد تصدى أبو الحسن الأشعرى لمفهوم المعتزلة الذى أعلى العقل ، وعارض الوحى فأقام للمسلمين مفهوما مستمدا من القرآن والسنة وهاجم آراء المعتزلة والرافضة والجهمية والخوارج .

فزع أهل المدينة ذات ليلة ، فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله راجعا وقد سبقهم إلى الصوت ، وقد استبرأ الخبر على فرس عربى لأبى طلحة والسيف فى عنقه .

وهو يقول : لن تراعوا ، لن تراعوا .

قال هشام لطاووس : عظني :

رفض (طاووس) الصرة التى أرسلها إليه من صنعاء : محمد بن يوسف الثقفى فطرحها رسول الأمير فى كوة البيت وخرج ، فلما كان بعد حين بلغ الأمير أنه ينكر عليه شيئا من أفعاله ، أرسل إليه يطلب المال الذى أعطاه .

فقال : (طاووس) للرسول : أين جعلته ؟

قال : فى هذه الكوة : قال : فخذه .

فمد يديه فإذا بالصرة وقد نسج عليها العنكبوت فأخذها وذهب قال له هشام وقد دخل عليه : ما الذى حملك على ما فعلت !

قال (طاووس) : وهو ؟

قال خلعت نعليك بحاشية بساطى ، ولم تقبل يدى ، ولم تسلم على بإمرة المسلمين ، ولم تكننى وجلست إزائى بغير أذنى .

قال طاووس : إنى أضع نعلاى بين يدى رب العزة كل يوم خمس مرات ولا يعاقبنى ولا يغضب على .

فأطرق هشام وقال : عظنى .

قال سمعت عليا يقول : إن فى جهنم حيات ، كالتلال تلدغ كل أمير لا يعدل فى رعيته .

قال على كرم الله وجهه :

إنا كنا إذا اشتد البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه . ولقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى وهو أقربنا إلى العدو .

أغلق بابى فما يجاوزه همى :

لما دخل الخليل بن أحمد فى سكرات الموت بدأ أهله يبكونه ، فالتفت إليهم وقال :

– لا تبكوا فوالله ما فعلت فعلا أخاف على نفسى منه ، وما كان لى فضل فكر صرفته إلى وجهه ، وددت بعد ذلك أنى كنت صرفته إلى غيرها ، وما علمت أنى كذبت متعمدا قط وأرجو أن يغفر الله لى التأويل .

وقد عاش الخليل حياة فقيرة ، فقد قام فى خص من اخصاص البصرة لا يقدر على فلسين بينما أصحابه يتكسبون بعلمه الأموال ، كانت آية ذهنه اللماح أنه يحاول أن يستخرج من الظواهر أصولا تجمع فى قانون واحد ، وبلغ من ورعه وزهده وقناعته عما فى أيدى الناس قوله :

– انى لأغلق علي بابى فما يجاوزه همى .

قام بأعمال ثلاثة ضخمة : رسم حركات الحروف أول مرة بعد أن كانت العرب تضع نقطا فوق الحروف ، وأنشأ علم العروض الذى حطم به نظرية القائلين بأن النظم العربى لا ضابط له ، واكتشف سر الموسيقى وأصلها . أما علمه الكبير فهو معجم : « كتاب العين » .

أتبنون بكل ريع آية تعبثون :

وقف منذر بن سعيد على المنبر بعد ثلاث أسابيع انقطعت منها الصلاة الجامعة في مسجد الزهراء الذى حشد له المنصور ألف عامل ، وفرشه بالرخام المرمرى ، وقف على المنبر وقال :

« أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » وظل منذر يقرع المنصور ، وقال له: لقد انصرفت إلى الزخرفة والبناء عن غزو الأعداء ومغالبة الفرنجة وظل يقرعه حتى دمعت عينا المنصور.

وذهب المنافقون يغرونه بعزل منذر فرفض وقال :

– أمثل منذر فى فضله وورعه وعلمه يعزل عن إرضاء نفس ناكبة عن الرشد ، وإنى لأستحى من الله ألا أجعل بينى وبينه فى صلاة الجمعة شفيعا مثل منذر فى ورعه وصدقه ، وكان منذر قاضى القضاة فى الأندلس ، إماما فقيها وخطيبا شاعرا ، لم تؤخذ عليه خلال ولايته قضية جور واحدة .

حدث أبو نصر قال :

رأيت أبا نواس يوما وهو يكنس مسجدا فهالنى الأمر وعجبت لذلك الشاعر الماجن المعروف بالمنكرات ، فكيف أراه على هذه الصورة .

فقلت له : ما هذا يا أبا نواس .

قال : أردت أن يرفع إلى السماء فى هذا اليوم خبر طريف

اغمدوا سيوفكم :

كان الخوارج حين دخلوا الكوفة قد انتهوا إلى مجلس أبى حنيفة رضى الله عنه ، فانتضوا سيوفهم وقالوا :

– قد جئنالك بمسألتين فإن أجبت عنهما وإلا أرقنا دمك .

قال : أنصفونى وأغمدوا سيوفكم فإن بريقها يهولنى .

فأبوا فقال : تكلموا .

قالوا : جنازتان على باب المسجد ،إحداهماجنازة شارب خمر شربها فمات فيها غرقا ، والثانية : جنازة زانية حملت وشربت دواء فقتلت جنينها وماتت .

قال أبو حنيفة : أمن النصارى كانا ، أم من اليهود .

قالوا : لا

قال : فمن أى الملل كانا ؟

قالوا : ممن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله .

قال : أقول كما قال نوح عليه السلام فى قوم كانوا أعظم جرما منهم : « ما علمى بما كانوا يعملون . إن حسابهم إلا على ربى » ، أو كما قال إبراهيم : « فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم » ، أو كما قال عيسى : « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » .

وأقول ما قال نبينا صلى الله عليه وسلم: « ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم اللّه خيرا اللّه أعلم بما فى أنفسهم ، إنى إذن لمن الظالمين » .

فألقى القوم أسلحتهم وقالوا :

– نبرأ إلى الله مما كنا عليه .

علمنى خمسة أبواب من المناسك : حجام :

قال الإمام أبو حنيفة :

أخطأت فى خمسة أبواب من المناسك بمكة فعلمنيها حجام ، وذلك أنى أردت أن أحلق رأسى : فقال : أعرابى أنت قلت : نعم وكنت قد قلت له:بكم يحلق رأسى : فقال : النسك لا يشارط فيه ، اجلس ، فجلست منحرفا عن القبلة فأومأ إلىَّ باستقبال القبلة .

وأردت أن أحلق رأسى من الجانب الأيسر ، فقال :

– أدر شقك الأيمن من رأسك فأدرته . وجعل يحلق رأسى وأنا ساكت . فقال لى : كبر ، فجعلت أكبر حتى قمت لأذهب .

فقال : أين تريد . قلت : رحلى .

فقال : صلِّ ركعتين ثم امض .

فقلت : ما ينبغى أن يكون هذا من مثل هذا الحجام إلا ومعه علم .

فقلت له : من أين لك ما رأيتك أمرتنى به .

قال : رأيت عطاء بن أبى رباح يفعل هذا .

القراءة خلف الإمام :

دهب قوم من أهل المدينة إلى الإمام أبى حنيفة يناظرونه ويحاجونه فى رأيه الذى يراه من أن قراءة المصلين خلف الإمام فى الصلاة تكفى عنها قراءة الإمام .

قال : لا يمكننى مناظرة الجميع ، اختاروا لجدالكم أعلمكم فاختاروه .

قال : هل إذا ناظرته لزمتكم الحجة لأنكم اخترتموه ، فجعلتم كلامه كلامكم .

قالوا : بلى .

قال : هكذا نحن اخترنا الإمام لقراءتنا وهو ينوب عنا .

كان عمر إذا ولى واليا كتب عليه العهد : ألا يركب برزونا ، ولا يأكل نقيا ، ولا يلبس رقيقا ، ولا يغلق بابه دون حاجات الناس .

ومن قوله : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ، لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على الفقراء .

ذكر رجل عند النبى بالاجتهاد فى العبادة ، حتى إنه كان لا ينتقل من صلاة ولا يفطر من صيام . فسأل النبى : من يقوم به .

قالوا : كلنا .

قال : كلكم أعبد منه .

هذا النعمان :

دخل الإمام أبو حنيفة على الإمام مالك فى المدينة فرفعه ، ثم قال بعد خروجه : أتدرون من هذا ، قالوا : لا ، قال :هذا النعمان ، لو قال هذه الاسطوانة من ذهب لمزجت كما قال :

وقال يزيد بن هارون : ما رأيت أورع من أبى حنيفة ، رأيته جالسا يوما فى الشمس عند باب إنسان ، فقلت له : يا أبا حنيفة لو تحولت إلى الظل .

قال : لى على صاحب هذا البيت دراهم ولا أحب أن أجلس فى ظل قباء داره .

وأرسل أبو حنيفة إلى شريكه فى التجارة متاعا فيه ثوب معيب يبيعه ، وشرط عليه أن يبين عيبه ، فباعه ونسى أن يبين ما فيه ، ولم يعرف المشترى ، فلما علم أبو حنيفة تصدق بثمن المتاع وكان ثلاثين ألف درهم .

قال رجل لعبد الملك بن مروان :

– إنى أريد أن أسر إليك شيئا .

قال عبد الملك لأصحابه : إذا شئتم . فنهضوا فأراد الرجل الكلام فقال له عبد الملك :

– قف ، لا تمدحنى فأنا أعلم بنفسى منك ، ولا تكذبنى فإنه لا رأى لمكذوب ، ولا تغتب عندى أحدا .

قال الرجل : يا أمير المؤمنين ، أتأذن لى فى الانصراف .

قال له : إذا شئت .

احفظ عنى أربعا فيهن صلاح ملك :

خرج الزهرى يوما من عند الخليفة هشام بن عبد الملك فقال :

– ما رأيت كاليوم ولا سمعت كأربع كلمات تكلم بهن رجل عند هشام قال :

« يا أمير المؤمنين : احفظ عنى أربع كلمات فيهن صلاح ملكك واستقامة رعيتك » : لا تَعِد عِدَةً لا تثق من نفسك بإنجازها ، ولا يغرنك المرتقى وإن كان سهلا، وإذا كان المنحدر وعراً ، واعلم أن للأعمال جزاء فاتق العواقب ، وإن للأمور بغتات فكن على حذر .

قال عيسى بن زازان: تحدثت بهذا الحديث إلى المهدى وفى يده لقمة قد رفعها إلى فيه فأمسكها وقال :

– ويحك أعد على ..

جاءوا إلى عمر بن الخطاب يقولون :

إن رجلا ارتد عن الإسلام .

قال : ماذا فعلتم به ؟ قالوا : قتلناه .

قال : ويلكم هلا أدخلتموه بيتا ، وأغلقتم عليه ، وأطعمتموه كل يوم رغيفا فاستتبتموه فإن تاب وإلا قتلتموه .

ورفع يديه إلى السماء وقال :

اللهم إنى لم أشهد ، ولم آمر ، ولم أرض إذ بلغنى .

من قال لا أدرى فقد أفتى :

كان مالك بن أنس لا يركب دابة فى المدينة تعظيما لبلد فيها أقام الرسول ودفن ، يقول :

إنى لأستحى من الله عز وجل أن أطأ تربة فيها نبى الله بحافر دابة .
ولدغته العقرب وهو يحدث حديث رسول الله فلم يغير مجلسه وقال :

إنما صبرت إجلالا .

وجاءه رجل يحمل مسألة من بلد مسيرة ست شهور فقال له :

– لا أحسن .

حج هارون الرشيد ثم شخص بعد الحج إلى المدينة وأراد أن يسمع الحديث عن مالك بن أنس ، فأرسل يستقدمه، فقال مالك للرسول :

– قل لأمير المؤمنين : إن طالب العلم يسعى إليه ، أما العلم فلا يسعى إلى أحد .

وأذعن الخليفة وزار مالكا فى داره ولكنه أمر أن يخلى المجلس من الناس ، فأبى مالك إلا أن يظل الناس فى مجلسه وقال :

– إذا منع العلم عن العامة فلا خير فيه للخاصة .

قال الرشيد : صدقت .

سل يا أمير المؤمنين :

دخل الإمام على جامع البصرة فأخرج القصاص وهو يقول : القصص بدعة ، حتى انتهى إلى حلقة شاب يتكلم على جماعة فاستمع إليه فأعجبه كلامه فقال :

– يا فتى : أسألك عن شيء إن خرجت منه تركتك تتكلم على الناس وإلا أخرجتك كما أخرجت أصحابك .

قال الحسن البصرى : سل يا أمير المؤمنين .

قال : أخبرنى ما صلاح الدين وما فساده ؟

قال : صلاحه الورع وفساده الطمع .

قال على : صدقت فتكلم فمثلك يصلح أن يتكلم على الناس ، وكانت دعوة الحسن البصرى إلى محاسبة النفس ، وتخليص المجتمع من فساد الترف الذى دب إليه .

أحضر أعرابى ابنه إلى الخليل بن أحمد يعلمه ، فقال له الخليل يوما وفى يده قدح زجاج : يا بني : صف لى هذه الزجاجة ، فقال: بمدح أو ذم قال: بمدح قال : تريك ، لا تقبل الأذى ولا تستر ما روى قال: فذمها ، قال : سريع كسرها ، بطيء جبرها . قال: فصف هذه النخلة وأشار إلى نخلة فى داره . فقال: بمدح أو بذم قال بمدح : قال : هى حلو مجتناها ، باسق منتهاها . ناضر أعلامها ، قال: فذمها قال : هى صعبة المرتقى بعيدة المجتنى محفوفة بالأذى .

قال الخليل : يا بنى : نحن إلى التعلم منك أحوج .

أتريدون الحديث أم المسائل :

كان الإمام مالك إذا أتاه الناس خرجت إليهم الجارية فتقول :

– يقول لكم الشيخ : أتريدون الحديث ، أم المسائل ؟ فإن قالوا المسائل خرج إليهم فأفتاهم، وإن قالوا الحديث قال لهم اجلسوا .

ودخل مغتسله فاغتسل وتطيب ولبس جددا وتلقى له المنصة فيخرج إليهم وعليه الخشوع ويوضع عود ، فلا يزال يبخر حتى يفرغ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فى أخبار القضاة : أن سفيان بن حسين قال :

كان القاضى إياس جالسا فنظر إلى رجل دخل المسجد ،فقال: هذا الرجل من أهل البصرة من ثقيف قد أرسل حماما له فذهب ولم يرجع إليه ، فقام رجل فسأل ذلك الغريب فأخبر عن نفسه بما قال إياس .

فسئل اياس : كيف عرف ذلك فقال :

أما معرفة البصرى فلا أحمد عليه ، وأما ثقفى فإن لثقيف هيئة لا تخفى ، أما قولى فقد حماما له فإني رأيته يتصفح الحمام ولا يرى ناهضا ، ولا طائرا ولا ساقطا إلا نظر إليه فقلت : قد فقد حماما لنفسه .

الفصل الخامس

المجتمع الإسلامى

المـــؤمـــن

تحفظ كتب التاريخ والتراث للمجتمع الإسلامى صورة زاهية فى مختلف المواقف والظروف والأحوال : مجتمع نشأ فى طاعة الله واستقام على أمره ، فى فكاهته وجده ، فى حركته وسكونه ، فى حاكمه وعالمه فى قارئه وسامعه ، الرحـمة أساسه ، والأريحية عمارته ، والغيرية علامته ، والناس يعيشون بالمحبة ويتعاملون بالسماحة .

هو أكبر منى وأنا أسن منه :

سأل سائل العباس بن عبد المطلب (عم النبى) .

أأنت أكبر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

قال العباس : إن رسول الله أكبر منى ، وأنا ولدت قبله أو قال : هو أكبر منى وأنا أسن منه .

أتى أبى أمى فقال لها : ولدت آمنة غلاما فخرجت بى حتى أصبحت آخذه بيدى حيث دخلنا عليها فكأنى أنظر إليه يمضع (يحرك) برجليه فى فراشه وجعل الناس تجذبنى عليه ويقولون: قبل أخاك .

من أعز الناس ؟

كان الكسائى يؤدب الأمين والمأمون ابنى هارون الرشيد فأراد يوما النهوض من عندهما فابتدرا إلى نعليه ليقدماهما له فتنازعا أيهما يفعل ثم اصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما واحدة .

فلما رفع الخبر إلى الرشيد وجه إلى الكسائى دعوة .

فلما مثل بين يديه قال : من أعز الناس ؟

قال : لا أعلم أعز من أمير المؤمنين .

قال الرشيد : بلى ، إن أعز الناس من إذا نهض تقاتل على تقديم نعليه وليا عهد المسلمين حتى يرضى كل منهما أن يقدم له واحدة .

فأخذ الكسائى يعتذر حاسبا أنه أخطأ .

قال الرشيد : لو منعتهما من تلك لأوجعتك لوما وعتبا ، ولألزمتك ذنبا فما وضع ما فعلا من شرفهما بل رفع من قدرهما وبين من جوهرهما فليس يكبر المرء وإن كان كبيرا عن ثلاث : تواضعه لسلطانه ووالديه ولمعلمه .

لما أسلم عبد الرحمن بن أبى بكر قال لأبيه :

لقد أهدفت لى يوم بدر فضفت عنك ولم أقتلك .

قال له أبوه :

- لكنك لو هدفت لى لم أضف عنك .

حكى الجاحظ قال :

كنت فى حانوت رجل عطار، وبينما أنا جالس معه إذ جاءه رجل من الطوافين يبيع العطر فى طبق يحمله على يديه ، فدفع لصاحب الحانوت عشرة دراهم وابتاع منه أشياء سماها من العطر ، فلما أراد أن يمضى سقط الطبق من يده وانكب جميع ما فيه .

فبكى الطواف وجزع ، فنزلت إليه أصبره وأواسيه .

فقال الطواف : يا جاحظ ليس جزعى بضياع ما ضاع فلقد كنت فى قافلة فضاع لى (هميان)[1] فيه أربعة آلاف دينار ومعها فصوص قيمتها كذا فلم أجزع لضياعها حيث كان لى غيرها من المال ، ولكن ولد لى هذه الليلة فاحتجنا لأمه ما تحتاج النفساء ، ولم يكن عندى غير هذه العشرة الدراهم .

(١) الهميان : الخرج .

فقلت فى نفسى : أشترى بها شيئا من العطر وأطوف بها صدر النهار لعل الله يرزقنى شيئا أسد به رمق أهلى ، فحين انكب الطبق علمت أنه لم يبق لى إلا الفرار .

وكان رجل من الجند جالسا إلى جانبى يسمع الحديث قال : أريد أن تأتى بهذا الرجل إلى منزلى فلما ذهبنا أعاد الطواف عليه قصته فسأله عن (الهميان) وفى أى موضوع سقط ، فوصف له المكان والعلامة .
فقال الجندى : أتعرفه إذا رأيته قال: نعم إن فيه من الفصوص كيت وكيت فجاء الجندى بهميان فتحه فوجده كما ذكر الرجل

فقال له : خذ مالك بارك الله لك فيه .

رمتكم مكة بأفلاذ كبدها :

قصد عثمان بن طلحة وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص المدينة(وكانوا لا يزالون على الشرك) فلما سمع الرسول بقدومهم سر بهم وقال :

– رمتكم مكة بأفلاذ كبدها .

يقول خالد : لبست صالح ثيابى ثم عمدت إلى رسول الله ، فلقينى أخى فقال : أسرع فإن رسول الله قد سر بقدومكم وهو ينتظركم . فأسرعنا المشى ، فاطلعت عليه فما زال – صلى الله عليه وسلم – يبتسم إلىَّ حتى وقفت عليه فسلمت عليه بالنبوة : فرد على السلام بوجه طلق .

فقلت : أشهد ألا إله إلا الله ، وأنك رسول الله .

قال الرسول : الحمد لله الذى هداك ، قد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير .

فقلت: يا رسول الله : ادع الله لى أن يغفر لى تلك المواطن التى كنت أشهدها عليك .

قال النبى : الإسلام يجب ما قبله

قيل : عرض محمد بن الجهم دارا للبيع بخمسين ألف درهم فلما حضر الشهود ليشهدوا قال : بكم تشترون منى جوار سعيد بن العاص ، وكانت الدار مجاورة لداره ، فقال : وكيف لا يباع جوار من إذا سألته أعطاك وإذا سكت عنه ابتدأك وإن أسأت إليه أحسن إليك قال : فبلغ سعيدا فوجه إليه بمائة ألف درهم وقال : أمسك عليك دارك .

عبد الله بن عباس :

قال مسروق :

إذا رأيت ابن عباس قلت : أجمَلُ الناس ، وإذا نطق قلت : أفصحُ الناس ، وإذا تحدث قلت : أعلمُ الناس ، وكان عبد الله إلى ذلك جميل النفس عالى الخلق متواضعا من غير ضعف ، قيل شتمه رجل فقال :

– إنك لتشتمنى وفى ثلاث :

إنى لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل فى حكمه فأحبه ،

ولعلى لا أقاضى إليه أبدا ، وإنى لأسمع الغيث يصيب البلاد من بلدان المسلمين فأفرح به وما لى بها سائمة ولا راعية ، وإنى لآتى على آية من كتاب الله فوددت لو أن المسلمين كلهم يعلمون عنها مثل ما أعلم .

يقول : انى ليبلغنى الحديث عن رجل فآتى بابه وهو قائل (من القيلولة) فأتوسد ردائى على بابه ، يسفى الريح على من التراب فيخرج فيرانى ، فيقول :

– يا ابن عم رسول الله ، ما جاء بك ، هل أرسلت إلىَّ فآتيك ، فأقول : لا ، أنا أحق أن آتيك فأسألك عن الحديث .

رجل وامرأة وغلام :

حدث يعقوب بن إبراهيم عن يحيى بن الأشعث عن إسماعيل بن إياس بن عفيف الكندى عن أبيه عن جده قال :

– كنت امرأ تاجرا فقدمت الحج ، فأتيت العباس بن عبد المطلب لأبتاع منه بعض التجارة ، وكان امرأ تاجرا ، فوالله إنى لعنده بمنى إذ خرج رجل من

خباء قريب منه فنظر إلى الشمس فلما رآها قد مالت : قام يصلى ، ثم خرجت امرأة من ذلك المخبأ الذى خرج منه الرجل فقامت خلفه تصلى ، ثم خرج غلام قد راهق الحلم من ذلك المخبأ فقام معهما يصلى .

قلت للعباس : من هذا يا عباس ؟

قال : هذا محمد بن عبد الله ابن أخى ، وهذه امرأته خديجة بنت خويلد ، وهذا على بن أبى طالب بن عمه .

قلت : ما هذا الذى يصنع .

قال : يصلى وهو يزعم أنه نبى ولم تتبعه إلا امرأته وهذا الغلام وهو يزعم أنه ستفتح عليه كنوز كسرى وقيصر وكان هذا أول الإسلام .

جاء رجل إلى عمر بن الخطاب يشكو إليه عقوق ابنه ، فأحضر عمر الولد وأنبه على عقوقه فقال الولد: ياأمير المؤمنين: أليس للولد حقوق على أبيه؟ قال: بلى . قال : فما هى يا أمير المؤمنين ؟

قال عمر : أن ينتقى أمه ، ويحسن اسمه ، ويعلمه الكتاب (القرآن) .

قال الولد : إن أبى لم يفعل ، أما أمى فكانت أمة لمجوسى وسمانى (جعلا) أى (خنفساء) ولم يعلمنى من الكتاب شيئا .

قال عمر للرجل : لقد عققته قبل أن يعقك وأسأت إليه قبل أن يسىء إليك .

إنك حجر لا تضر ولا تنفع :

قبل عمر الحجر الأسود وهو يطوف بالكعبة وقال :

قد علمت أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، أما والله لولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقبلك ما قبلتك وكان الناس يأتون الشجرة التى بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تحتها بيعة الرضوان فيصلون عندها ، فبلغ ذلك عمر فأوعدهم فيها وأمر بها فقطعت وقال :

أراكم أيها الناس رجعتم إلى العزى ، ألا لا أوتى منذ اليوم بأحد عاد لمثلها إلا قتلته بالسيف كما يقتل المرتد .

ذهب عمرو بن عدى الكفيف إلى امرأة كافرة تسمى « عصماء » بنت مروان كانت تؤذى رسول الله وتطعن عليه ، ذهب إليها فى جوف الليل ودخل عليها بيتها وقتلها وهو أعمى .

وعاد فصلى الصبح مع النبى وأخبره بما فعل وسأله :

– هل علىَّ فى ذلك شىء ؟

قال الرسول : لا ينتطح فيها عنزان

قال عمرو : انى لأتقى تبعة أخوتها

قال النبى : لا تخفهم .

وسماه النبى : عمير البصير

عقد اللؤلؤ :

قال على بن أبى رافع :

كنت على بيت مال على بن أبى طالب وكاتبه ، فكان فى بيت ماله عقد لؤلؤ كان قد أصابه يوم البصرة ، فأرسلت إلىَّ بنت على بن أبى طالب تقول :

– بلغنى أن فى بيت مال عقد لؤلؤ وهى فى يديك وأنا أحب أن تعيرنيه أتجمل به يوم الأضحى ، فأرسلتها إليه عارية مضمونة مردودة بعد ثلاث أيام ، وإذا أمير المؤمنين رآه عليها فعرفه فسألها عنه فقالت له ، فأرسل إلى فقال :

– أتخون المسلمين يا ابن أبى رافع ؟

قلت : معاذ الله .

قال : كيف أعرت بنت أمير المؤمنين العقد الذى فى بيت مال المسلمين بغير إذنى ورضاهم .

قلت : قد وعدت بأن ترده سالما إلى موضعه

– رده من يومك ، وإياك أن تعود لمثله فتنالك عقوبتى ، ثم قال : ويل لابنتى إن كانت أخذت العقد على غير عارية مضمونة مردودة ، لكانت إذن أول هاشمية قطعت يدها فى سرقة .

إننى ملك وهو سوقة :

كان جبلة بن الأيهم آخر ملوك بنى غسان ، قد أسلم وخرج إلى مكة حاجا فلما كان من بعض طوافه داس رجل من فزارة على طرف ردائه فحل ازاره فلطمه جبلة فجدع أنفه ، فاستعدى الرجل عليه عمر . فدعا به وخيره بين أن يترضى الرجل ، أو يقيد له منه .

فقال جبلة : منى وأنا ملك وهو سوقة ؟

قال عمر : إن الإسلام قد سوى بينكما وجمعك وإياه فلست تفضله إلا بالتقوى قال جبلة : قد ظننت أنى فى الإسلام أكون أعز منى فى الجاهلية .

قال عمر : دع عنك هذا فإنك إن لم ترض الرجل أقدته منك

قال : إذن أتنصر

قال : إن تنصرت ضربت عنقك

ويحك سقيتنى نارا :

قال أبو معاوية الضرير وكان من العلماء ومربى أبناء الرشيد :

– أكلت مع الرشيد يوما فصب على يدى الماء رجل .

فقال لى: يا أبا معاوية : أتدرى من صب الماء على يديك ؟

قلت : لا يا أمير المؤمنين ؟

قال : أنا .

قلت : ولم فعلت ذلك ؟

قال : فعلته إجلالا للعلم .

ركب زيد بن ثابت . فدنا منه عبد الله بن عباس فأخذ بركابه فقال : لا تفعل يا ابن عم رسول الله ، فقال : هكذا أمرنا أن نفعل وعن خارجة بن زيد بن ثابت : قال : كان زيد إذا سئل عن شيء . قال : هل وقع ؟ فإن قالوا له : لم يقع. لم يخبرهم ، وإن قد وقع أخبرهم .

قال عمر بن الخطاب لخادمه ذات مساء : من أين هذا اللبن ؟

قال : إن الناقة انفلت عليها ولدها فشرب لبنها ، فحلبت لك ناقة من مال الله .

قال له عمر : ويحك سقيتنى نارا ، ادع لى عليا .

فلما جاء على أفتى أمير المؤمنين فأحل له ما شرب .

والله ليسألنك عن موقفى يوم القيامة :

أتى أعرابى إلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه فسأله شيئا ؟ فقال على :

- والله ما أصبح فى بيتى شيء فضل عن قوتى .

فولى الأعرابى هو يقول :

- والله ليسألنك الله عن موقفى بين يديك يوم القيامة فبكى على بكاء شديدا وأمر برده وقال لخادمه قنبر :

- ائتنى بدرعى . فدفعها إلى الأعرابى وقال :

- لاتخدعن عنها (أى لا يغشك أحد فى ثمنها) فطالما كشفت بها الكروب عن وجه رسول الله . .

قال قنبر : يا أمير المؤمنين ، كان يكفيه عشرون درهما .

قال على : يا قنبر : والله ما يسرنى أن لى زنة الدنيا ذهبا وفضة فتصدقت به ، وقبل الله منى ذلك ، وأنه يسألنى عن موقفى هذا بين يديه.

قيل من جود عبد الله بن عباس : إنه أول من فطر جيرانه ، وأول من وضع الموائد على الطرق . وأول من حيا على طعامه .

وكان يعطى الكثير فإذا قيل له :

– إن فلانا يرضيه القليل .

قال : إن كان يرضيه القليل فإنه لا يرضينى إلا الكثير ، وإن كان لا يعرفنى فأنا أعرف نفسى .

خذيه بأربعة دراهم :

جاءت امرأة الإمام أبا حنيفة تطلب ثوب خز فأخرجه لهافقالت له : إنى امرأة ضعيفة وإنها أمانة ، فبعى هذا الثوب بما يُقَوَّمُ عليك .

قال: خذيه بأربعة دراهم .

قالت:أتسخر بى وأنا عجوز كبيرة

قال : إنى اشتريت ثوبين فبعت أحدهما برأس المال إلا أربعة دراهم فبقى على الثوب بأربعة .

قيل للأحنف بن قيس : ممن تعلمت الحلم .

قال:من قيس بن عاصم المنقرى :

رأيته قاعدا بفناء داره يحدث قومه . حتى أتى برجل مكتوف ورجل مقتول . فقيل له : هذا ابن أخيك قتل ابنك ، فوالله ما حل حبوته ولا قطع كلامه . ثم التفت إلى ابن أخيه وقال :

– يا ابن أخى : رميت نفسك بسهمك ، وقتلت ابن عمك ، ثم قال للآخر : قم فوار أخاك وحل كتاف ابن عمك وسق إلى أمه مائة ناقة دية ، فإنها غريبة .

لم آثرت الكلب :

خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له ، فنزل عند قوم لديهم عبد أسود ، وكان معه ثلاثة أرغفة فدخل كلب فدنا منه ، فرمى إليه برغيف فأكله ثم رمى إليه الثانى فأكله ، ثم رمى إليه الثالث فأكله .

قال عبد الله : كم قوتك كل يوم يا غلام ؟

قال الغلام : ما رأيت ، قال:فلم آثرت الكلب ؟

قال : لأن أرضنا ليس فيها كلاب ، فلابد أنه جاء من بعيد ، يدفعه الجوع ، فكرهت رده .

قال : فما كنت صانعا اليوم؟

قال الغلام : أطوى يومى هذا .

قال عبد الله بن جعفر : إن هذا والله لأسخى منى ، ثم اشترى الأرض والعبد ، ثم أعتقه حراً لوجه الله .

كان الإمام الليث بن سعد واسع الثراء . وكان لا يجارى فى الكرم ومن عجائب كرمه أنه اشترى دارا ، فلما أرسل من يتسلمها وجد بالدار أيتاما وأطفالا ، فسألوه ، أن يترك لهم الدار ، فلما أعلم الليث بذلك وهبها لهم ومعها ما يصلح شأنهم من المال .

ما أنا براكب فرسى ولا بمقاتلك :

قال عمرو بن معد يكرب وكان فارسا مغوارا :

خرجت يوما حتى انتهيت إلى حى ، فإذا أنا بفرس مشدود ورمح مركوز ، وإذا صاحبه فى وهدة يقضى حاجته فقلت : خذ حذرك فإنى قاتلك .

قال : من أنت؟

قلت : أنا عمرو بن معد يكرب

قال : أبا ثور : ما أنصفتنى ! أنت على ظهر فرسك ، وأنا فى بئر . فأعطنى عهدا أنك لا تقتلنى حتى أركب فرسى وآخذ حذرى فأعطيته عهدا لا أقتله حتى يركب فرسه ويأخذ حذره . فخرج من الموضع الذى كان فيه حتى احتبى بسيفه وجلس .

فقلت له : ما هذا ؟

فقال : ما أنا براكب فرسى ولا بمقاتلك فإن نكثت عهدك فأنت أعلم .

فتركته ومضيت .

تعال كما شئت :

كان جعفر المنصور أيام بنى أمية إذا دخل البصرة دخل متكتما وكان يجلس فى حلقة أزهر السمان المحدث فلما أفضت الخلافة قدم أزهر إليه فرحب به وقربه وسأله عن حاجته .

فقال : يا أمير المؤمنين : دارى متهدمة ، وعلىَّ أربعة آلاف درهم وأريد تزويج ابنى محمد فوصله باثنى عشر ألف درهم .

وقال له : قد قضينا حاجتك يا أزهر فلا تأتنا بعد هذا طالبا فأخذها وارتحل ، فقدم عليه بعد سنة فسأله المنصور عن حاجته فقال : جئت مسلما .

فقال : لا والله بل جئت طالبا وقد أمرنا لك باثنى عشر ألفا فلا تأتنا طالبا ولا مسلما . فأخذها ومضى فلما كان بعد سنة أتاه .

فقال : ما حاجتك يا أزهر ؟

قال : أتيت عائدا

فقال : لا والله بل جئت طالبا وقد أمرنا لك باثنى عشر ألفا فاذهب ولا تأتنا بعد . طالبا ولا مسلما ولا عائدا .

فأخذها وانصرف فلما مضت السنة أقبل فقال له : ما حاجتك ؟ قال: يا أمير المؤمنين : دعاء كنت أسمعك تدعو به جئت لأكتبه .

فضحك المنصور وقال : الدعاء الذى تطلبه غير مستجاب فإنى دعوت به أن لا أراك فلم يستجب لى وقد أمرنا لك باثنى عشر ألفا وتعال كما شئت . فقد أعيتنا الحيلة .

مجنون حلو الكلام :

دخل مجنون حلو الكلام على أحد أمراء بغداد وبين يديه طبق لوز .

فقال : أيها الأمير : ما هذا ؟

فرمى إليه بواحدة ، فقال : « ثانى اثنين إذ هما فى الغار » ، فرمى إليه بأخرى فقال المجنون : « فعززنا بثالث » فأعطاه ثالثة فقال : « فخذ أربعة من الطير » فألقى إليه رابعة .

قال المجنون : « خمسة سادسهم كلبهم » فدفع إليه الخامسة ، فقال : « فى ستة أيام » فجعلها ستة ، فقال : « سبع سموات طباقا » . فصيرها سبعة ، فقال : «ثمانية أزواج » فرمى إليه الثامنة فقال : « وكان فى المدينة تسعة رهط » فرمى بالتاسعة إليه ، فقال : « تلك عشرة كاملة » فرمى بالعاشر إليه .
فقال : « إنى رأيت أحد عشر كوكبا » فأعطاه إياها ، فقال : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا » فأكمل له اثنى عشر فقال : « إن يكن منكم عشرون صابرون » فدفع إليه عشرين فقال : « يغلبوا مائتين » فأمر برفع الطبق وقال : كل ، لا أشبع الله بطنك .

قال : والله لو لم تفعل ذلك لقرأت لك :

« وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون » .

الدنيا حلم والآخرة يقظة :

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصرى يقول :
— اجمع لى أمر الدنيا وصف لى الآخرة . فكتب إليه الحسن البصرى يقول :

أما الدنيا حلم ، والآخرة يقظة ، والموت متوسط ، ونحن فى أضغاث أحلام ، من حاسب نفسه ربح ، ومن غفل عنها خسر ، ومن نظر فى العواقب نجا ، ومن أطاع هواه ضل ، ومن حلم غنم ومن خاف سلم ، ومن اعتبر فارجع ، وإذا ندمت فاقلع ، وإذا جهلت فاسأل . وإذا غضبت فأمسك . واعلم أن أفضل الأعمال ما أكرمت النفوس عليه .

روى أن سلطان صقلية أرق ذات ليلة ومنع النوم فأرسل إلى قائد البحر قال : أنفذ الآن مركبا إلى أفريقية يأتون بأخبارها فلما عاد قال : ذهبت فى المركب فبينما أنا فى جوف الليل والبحارون يجدفون إذا بصوت يقول : يا الله يا الله يا غياث المستغيثين ويكررها مرارا فلما استقر صوته فى أسماعنا ناديناه مرارا : لبيك لبيك . وتوجهنا نحو الصوت فألفينا الرجل غريقا فى آخر رمق فى الحياة فأخرجناه من البحر وسألناه عن حاله فقال : كنا مقلعين من أفريقية فغرقت سفينتنا منذ أيام وما زلت أسبح حتى وجدت الموت فلم أشعر بالغوث إلا من ناحيتكم .

آكل الرقاق وألبس الدقاق :

كتب يحيى بن زيد النوفلى إلى مالك :

بلغنى أنك تلبس الدقاق وتأكل الرقاق وتجلس على الوطىء ، وتجعل على بابك حاجبا ، وقد جلست مجلس العلم ، وقد ضربت إليك المطى وارتحل الناس إليك ، واتخذوك إماما ورضوا بقولك فاتق الله يا مالك وعليك بالتواضع .

فأجاب مالك :

أما ما ذكرت لى أنى آكل الرقاق وألبس الدقاق وأحتجب وأجلس على الوطىء فنحن نفعل ذلك ونستغفر الله ، وقد قال تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » وإنى لا أعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه .

روى أن رجلا قدم إلى معاوية فقال له :

– سألتك بالرحم التى بينى وبينك

قال معاوية : أمن قريش أنت . قال:لا . قال : فمن سائر العرب . قال : لا ، قال : فأية رحم بينى وبينك

قال:رحم آدم !

فابتسم معاوية وقال : رحم مجفوة والله لأكونن أول من يصلها . وقضى حاجته .

حفظ القرآن فى عام :

وفد غائب بن صعصعة على عليّ بن أبى طالب ومعه ابنه الفرزدق فقال له : من أنت قال : غائب بن أبى صعصعة .

قال : ذو الإبل الكثيرة . قال:نعم قال : فما فعلت بإبلك .

قال : أذهبتها النوائب وزعزعتها الحقوق .

قال : ذلك خير سبلها

ثم قال له : يا أبا الأخطل وهو أخو الفرزدق غير الأخطل غياث بن غوث

– من هذا الذى معك ؟

قال : ابنى وهو شاعر

قال : علمه القرآن خير له من الشعر

فكان ذلك فى نفس الفرزدق حتى قيد نفسه وآلى عليها أن لا يحل قيده حتى يحفظ القرآن فحفظه فى سنة .

استأذن رجل على هارون الرشيد فقال :

– إنى أصنع ما تعجز الخلائق عنه قال الرشيد : هات فأخرج أنبوبة فصب فيها إبرا عدة ، ثم وضع واحدة على الأرض ، ثم قام على قدميه فجعل يرمى إبرة

إبرة فتقع كل إبرة فى عين الإبرة الموضوعة حتى فرغ لعبه فأمر الرشيد بضربه مائة سوط ثم أمر له بمائة دينار .

فسئل عن جمعه بين الكرامة والهوان

فقال : وصلته لجودته وذكائه ، وأدبته لكى لا يصرف فرط ذكائه فى الفضول .

إنى لا آخذ على كرمى ثمنا :

قيل لقيس بن سعد :

- هل رأيت قط أسخى منك ؟

قال :نعم : نزلنا بالبادية على امرأة فجاء زوجها فقالت له :

- إنه نزل بنا ضيفان

فجاء بناقة فنحرها وقال : شأنكم (أى عليكم بها) فلما كان الغد جاء بأخرى فنحرها وقال : شأنكم

قلنا : ما أكلنا من التى نحرت البارحة إلا القليل .

قال : لا أطعم ضيوفى طعام أمس .

فبقينا عنده أياما والسماء تمطر وهو يفعل ذلك فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار فى بيته وقلنا لامرأته :

- اعتذرى لنا إليه ، ومضينا

فلما ارتفع النهار إذا برجل يصيح خلفنا : قفوا فوقفنا ، فلما دنا منا قال : خذوا دنانيركم ، فإنى لا آخذ عن كرمى ثمنا وإن لم تأخذوها طعنتكم برمحى هذا .

فأخذناها وانصرفنا .

قال أبو تمام الطائى : إن لأبى العتاهية بضعة أبيات ما شاركه فيها أحد ولا قدر على مثلها متقدم ولا متأخر ، منها قوله :

والنـــاس في غفـــلاتهم ورحـــى المنيـــة تطحـــن

وقوله :

ألم ترأن الفقر يرجى له الغنى وإن الغنى يخشى عليه من الفقر

وقوله :

هب الدنيا تساق إليك عفوا أليس مصير ذاك إلى زوال

اخرج عني فلست آمن على نفسي :

قال إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك :

هربت من عدوى فمررت على الكوفة فإذا باب كبير ، ورجل وسيم ما إن رآني حتى سألني عن أمري .

فقلت : رجل خائف ومستجير بك .

فأجارني ، وقدم لي خير ما عنده

وكان يركب كل يوم في الفجر ولا يرجع إلا في المساء .

فسألته في ذات يوم فقال :

– إن إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك قتل أبي ظلما ، وأنا أطلبه لأدرك ثأري .

فقلت له : يا هذا قد وجب حقك . أنا إبراهيم فخذ ثأرك .

فتبسم مني ، فقلت : إنه الحق .

فتغير وجهه واحمرت عيناه ، وفكر طويلا ثم قال :

– لن أنقض عهدي واخرج عني فلست آمن على نفسي وأعطاني ألف دينار فرفضتها .

قال أحدهم : نزلت في بعض القرى وخرجت في الليل لحاجة فإذا أنا بكفيف على عاتقه جرة وفي يده سراج ، فقلت له :

– أنت والليل والنهار عندك سواء : فما معنى السراج قال : حملته معي لمثلك يستضيء به فلا يعثر بي فأقع وتنكسر الجرة .

لتعلم أن هناك من هو أجود منك :

روى عن معن بن زائدة قال :

لما هربت من المنصور خرجت من باب حرب ، بعد أن أقمت أياما وخففت لحيتى وعارضتى ولبست جبة صوف غليظة .

قال : فتبعنى أسود متقلدا سيفا ، حتى إذا غبت عن باب حرب ، قبض على خطام الجمل فأناخه ، وقبض علىَّ وقال : أنت معن بن زائدة .

قلت : يا هذا ، اتق الله ، أين أنا من معن ؟

قال : دع عنك هذا فأنا والله أعرف بك

قلت : هذا جوهر حملته معى بأضعاف ما يبذله المنصور لمن جاءه بى فخذه ولا تسفك دمى .

قال : هاته ، فنظر إليه ساعة ثم قال :

- إن الناس قد وصفوك بالجود فأخبرنى :

هل وهبت قط مالك كله

ـ قلت : لا.

قال : فنصفه .

قلت : لا.

قال : فثلثه .

قلت : لا .

حتى بلغ العشر فاستحييت

فقال : ما ذاك بعظيم ، أنا والله رجل ورزقى عشرون درهما وهذا الجوهر قيمته ألف دينار قد وهبته لك ووهبتك نفسك لجودك المأثور بين الناس .

إن كان فيها عتقك ففيها رِقّي :

أنفذ عثمان بن عفان بمائة دينار إلى أبى ذر الغفارى رضى الله عنه وقال لغلامه :

– إن قبل ذلك فأنت حر .

فحملها إليه ، فلم يقبلها . قال الغلام :

– أقبل ففيه عتقى .

قال أبو ذر : إن كان فيها عتقك ففيها رق .

دخل عمارة بن حمزة على أمير المؤمنين المنصور وقعد فى مجلسه وكان ذا عزة وثروة ونفس أبية .

فقام رجل وقال : مظلوم يا أمير المؤمنين .

قال : من ظلمك

قال : إن عمارة بن حمزة غصبنى ضيعتى .

قال المنصور : يا عمارة قم فاجلس مع خصمك للقضاء .

قال عمارة : يا أمير المؤمنين إن كانت الضيعة له فلست أنازعه فيها، وإن كانت لى فقد وهبتها له .

حدث الشيخ أحمد العتر رحمه الله أنه زار القاضى يحيى فى داره يوم عيد فأراد أن يفاتحه الكلام فقال :

– يا مولانا صدق من قال : لو أنصف الناس استراح القاضى .

فاستوى القاضى يحيى وكان جالسا وقال بحدة :

– كلا : لو أنصف القاضى لاستراح الناس .

سار شهرا من أجل حديث رسول الله :

قال السيوطى فى حسن المحاضرة :

إن جابر بن عبد الله بلغه أن عند عبد الله بن أنيس الجهنى الأنصارى حديثا فى القصاص عن رسول الله قال جابر :

فخرجت إلى السوق فاشتريت بعيرا ثم شددت عليه رحلا ، ثم سرت إليه من المدينة شهرا فلما قدمت مصر ، سألت عنه حتى وقفت على بابه فسلمت :

فخرج غلام أسود فقال: من أنت ؟ قلت : جابر بن عبد الله فدخل عليه فذكر فقال : قل له صاحب رسول الله ؟

فخرج الغلام فقال ذلك قلت : نعم

فخرج إلىّ والتزمنى والتزمته

فقال : ما جاءك يا أخى .

قلت : حديث تحدثت به عن رسول الله فى القصاص ، لم يبق أحد يحدث به عن رسول الله غيرك ، أردت أن أسمعه منك ، قبل أن تموت ، أو أموت

قال عمرو بن العاص :

ما رأيت أحدا كلم عمر رضى الله عنه إلا رحمته ، لأنه كان لا يخدع أحدا لفضله ، ولا يخدعه أحد لفطنته .

رأى أريب أو خدعة أديب :

قدم عمر بن الخطاب إلى الشام على حمار فتلقاه معاوية فى موكب نبيل . فأعرض عنه عمر ، فجعل يمشى إلى جنبه راجلا فقال له عبد الرحمن بن عوف :

– أتعبت الرجل فأقبل عليه .

قال عمر : يا معاوية . أنت صاحب الموكب مع ما بلغنى من وقوف ذوى الحاجات ببابك .

قال نعم : يا أمير المؤمنين

قال:ولم ذلك ؟

قال : لأنا فى بلاد لا تمنع من الجواسيس ولابد لهم ما يروعهم من هيبة السلطان فإن ألزمتنى بذلك أقمت عليه ، وإن نهيتنى عنه انتهيت .

قال عمر : إن كان الذى قلت حقا فإنه رأى أريب ، وإن كان باطلا فإنها خدعة أديب . لا آمرك ولا أنهاك .

قال العتبى : أسر معاوية إلى أخيه عمرو بن عتبة بن أبى سفيان حديثا .

قال عمرو : فأتيت أبى فقلت له :

– إن أمير المؤمنين أسر إلىّ حديثا ، أفأحدثك به ؟

قال : لا . من كتم سره كان الخيار فى يده فلا تجعل نفسك مملوكا بعد أن كنت مالكا

قلت : أو يكون هذا بين الرجل وأبيه

قال :لا ، ولكن أكره أن تعود لسانك إذاعة السر

ألك ألف دينار وأنت أحمق :

قال الأصمعى :

قلت لغلام حدث السن من أولاد العرب :

– أيسرك أن يكون لك مائة ألف درهم وأنت أحمق ؟

قال : لا والله

فقلت : ولم ؟

قال : أخاف أن يجنى على حمقى جناية تذهب مالى ويبقى على حمقى .

قيل لعلى بن الحسين رضى الله عنهما :

ـ إنك من أبر الناس بأمك ولسنا نراك تأكل معها

قال : إنى أخاف أن أسبقها إلى شيء سبقت عينها إليه فأعقها بذلك .

كان الرشيد يعجبه غناء الملاحين فى الزلزلات إذا ركبها فدعا الشعراء إلى أن يعملوا لهم شعرا يغنون فيه فقالوا : ليس أحد أقدر على هذا من أبى العتاهية وهو فى الحبس . فوجه إليه الرشيد أن يقول فى ذلك شعرا ولم يأمر بإطلاقه ، فقال : والله لأقولن شعرا يحزنه ، ولا يسره فكان مما قاله :

خانك الطـرف الطمـوح أيها القـلب الجمـوح
لدواعـى الخير والشر دنـو ونـزوح
هـل لمطلـوب بذنب توبة منـه نصوح

فبكى الرشيد فلما رآى الفضل بن الربيع كثرة بكائه أومأ إلى الملاحين فسكتوا .

أأسقيك قال : اسق أخى .

عن حذيفة العدوى قال :

كنت أسقى الجند يوم اليرموك وإذا أنا بابن عم لى بين القتلى فقلت : أأسقيك فأشار إلىَّ : أى نعم ، فإذا برجل يقول آه ، فأشار ابن عمى أن انطلق إليه وأسقيه ، فإذا هو هشام بن العاص ، فقلت : أسقيك ؟ فأشار إلىَّ أى نعم ، فسمع آخر يقول آه ، فأشار إلىَّ أن أنطلق إليه فجئته فإذا هو قد مات فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى ابن عمى فإذا هو قد مات .

قيل لعبد الملك بن مروان :

– أسرع إليك الشيب .

قال : كيف لا وأنا أعرض عقلى كل جمعة على الناس .

وقيل : انه ارتج على عثمان وهو على المنبر فقال : أيها الناس أنتم إلى أمير فعال أحوج منكم إلى أمير قوال .

إن الله يقفك ويسألك :

دخل عمرو بن عبيدة على الخليفة المنصور فقال :

يا أمير المؤمنين : إن الله عز وجل يقفك ويسائلك عن مثقال ذرة من الخير والشر ، وإن الأمة خصماؤك يوم القيامة ، وإن الله لا يرضى منك إلا بما ترضاه لنفسك ، وإنك لا ترضى لنفسك إلا بأن يعدل عليك ، وأن الله عز وجل لا يرضى منك إلا بأن تعدل فى الرعية .

شهد الفضل بن الربيع وزير الرشيد عند أبى يوسف القاضى ، فلم يقبل شهادته ، فعاتبه الخليفة فى ذلك وقال له :

– لم رددت شهادته ؟

قال أبو يوسف :

– لأنى سمعته يوما يقول للخليفة :

– أنا عبدك ، فإن كان صادقا فلا شهادة للعبد وإن كان كاذبا فلا شهادة للكاذب ، وإذا لم يبال فى مجلسك بالكذب فلا يبالى بى فى مجلسى .

لو غيرك قالها يا أبا عبيدة :

لما قدم عمر الشام عرضت له مخاضة فنزل عن بعيره ونزع خفيه فأمسكهما بيده وخاض الماء ومعه بعيره .

فقال له أبو عبيدة : لقد صنعت اليوم صنيعا عظيما عند أهل الأرض .

فصك عمر فى صدره وقال :

– أوه ، لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة ، إنكم كنتم أذل الناس وأحقر الناس ، فأعزكم الله بالإسلام فمهما تظلبوا العزة بغيره يذلكم الله .

وقدم عمر مكة فأقبل أهلها يسعون فقالوا :

يا أمير المؤمنين إن أبا سفيان ابتنى دارا فحبس عنا سبل الماء ليهدم منازلنا .

فأقبل عمر ومعه الدرة فإذا أبو سفيان قد نصب أحجارا فقال : ارفع هذا ، فرفعه ، ثم قال : وهذا . وهذا حتى رفع أحجارا كثيرة خمسة أو ستة .

ثم استقبل عمر الكعبة .

فقال : الحمد لله الذى جعل عمر يأمر أبا سفيان ببطن مكة فيطيعه .

الفصل السادس
المـــرأة المسـلمـة

قدمت المرأة المسلمة فى التاريخ نموذجا لا مثيل له فى تاريخ المرأة كله ، الكرامة والإيمان والصدق والوفاء ، غير الإسلام طبيعتها وحولها إلى معرفة الله ، وأداء حق الرجل ، وحماية العرض ، ورعاية الطفل وبناء الأسرة ، كن الدافعات للرجال إلى البطولة والنصر ، وكن المحرضات على الجهاد ، اللائى يرقبن الرزق فلا يقبلن منه إلا الحلال ، إن صورة المرأة فى تاريخ الإسلام جد كريمة وعظيمة .

كنا فى الجاهلية ما نعد للنساء أمرا :

قال عمر بن الخطاب :

والله إن كنا فى الجاهلية ما نعد للنساء أمرا حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل ، وقسم لهن ما قسم ، فبينما أنا فى أمر أئتمره ، إذ قالت لى امرأتى : لو صنعت كذا وكذا ، فقلت لها : مالك أنت ..... ؟

قالت لى : عجبا يا ابن الخطاب ... إلى أن قالت له : وإن ابنتك لتراجع رسول الله حتى يظل يومه غضبان فأخذت ردائى ثم انطلقت حتى دخلت على « حفصة » فقلت لها : يا بنية : إنك لتراجعين رسول الله حتى يظل يومه غضبان .

قالت : إنا والله لنراجعه

ثم خرجت حتى دخلت على أم سلمة لقرابتى منها فكلمتها فقالت : عجبا لك يا ابن الخطاب ، قد دخلت فى كل شىء ما ينبغى أن تدخل بين رسول الله وأزواجه .

فسر لى : حتى أختار لنفسى :

تقدم سهيل بن عمرو وأبو سفيان لخطبة هند بنت عتبة فدخل عليها أبوها فأخبرها الخبر فقالت :

يا أبت فسر لى أمرهما وبين لى خصالهما حتى أختار لنفسى أشدهما موافقة لى .

فبدأ يذكر سهيلا فقال : أما سهيل فهو من خيار العشرة وثروة من العيش ، إن تابعته تابعك وإن ملت عنه حط إليك ، تحكمين عليه فى أهله وزمانه .

أما أبو سفيان فموسع عليه منظور إليه فى الحسب الحسيب ، والرأى الأريب، مدره أرومته ، وعز عشيرته ، شديد الغيرة ، كثير الطيرة ، لا ينام على ضعة ولا يرفع عصاه عن أهله فقالت هند :

يا أبت : الأول سيد مضياع للمرأة فما عست أن تلين بعد إبائها وتصنع تحت جناحه ، إذا تابعها أهلها فأشرت ، وخافها أهلها فأمنت ، فساءت عن ذلك حالها ، وقبح عند ذلك دلالها . فإن جاءت بولد أحمقت ، وإن أنجبت فمن خطأ ما أنجبت فاطو ذلك عنى ولا تسمه لى .

أما الآخر فبعل الفتاة الخريدة ، الحرة العفيفة ، وإنى للتى لا أريب له عشيرة فتغيره ، ولا يصيبه بذعر فتضيره ، وإنى لأخلاق مثل هذا لموافقة فزوجنيه .

الشاة لا تخاف سلخها بعد ذبحها :

دخل عبد الله بن الزبير على أمه « أسماء ذات النطاقين » يشكو إليها تفرق أنصاره قالت له :

يا بنى إن كنت على حق فامض لما تؤمن به

قال : أخاف إن قتلونى أن يمثلوا بى

قالت : إن الشاة لا تخاف سلخها بعد ذبحها

كان تقيا ورعا ، صواما قواما طويل الصلاة عظيم الشجاعة بلغ من شجاعته أنه بعد أن تفرق عنه أنصاره حمل على أعدائه .
وكان يضرب بسيفين . وهو أول مولود مسلم ولد بعد الهجرة ، شب فى حجر النبوة ، أبوه الصحابى الذى شهد المعارك كلها وأمه ذات النطاقين .

خرج عبد الله بن المبارك إلى الحج فاجتاز بعض البلاد ، فمات طائر معهم فأمر بإلقائه ، فخرجت جارية من دار قريبة فأخذت الطائر الميت ولفته ، وأسرعت به إلى الدار فلما سألها : لم أخذت الميتة؟ قالت : إنها وأخاها فقيران لا يجدان شيئا ولا يعلم بهما أحد .

فأمر ابن المبارك برد الأحمال ، وقال لوكيله : كم معك من النفقة . قال : ألف دينار ، قال ابق منها عشرين دينارا ، واعط باقى الألف إلى الجارية ، وعد بنا إلى « مرو » فهذا أفضل من حجنا هذا العام ورجع ولم يحج .

هجرتان لا هجرة واحدة :

لما قدمت أسماء بنت عميس من أرض الحبشة قال لها أحد الصحابة : يا حبشية سبقناكم بالهجرة

فقالت : أى لعمرى لقد صدقت . كنتم مع رسول الله يطعم جائعكم ويعلم جاهلكم وكنا البعداء الطرداء . أما والله لآتين رسول الله صلى الله عليه وسلم فلأذكرن ذلك له ، فأتت النبى فقالت : يا رسول الله إن رجالا يغمزون علينا ويزعمون أن لسنا من المهاجرين الأولين . فقال النبى :

– بل لكم هجرتان : هاجرتم إلى أرض الحبشة ونحن مرتهنون بمكة ، ثم هاجرتم بعد ذلك إلى المدينة .

بعث ابن الزبير إلى السيدة عائشة رضى الله عنها بغرارتين فيهما مال يبلغ مائتى ألف درهم وكانت صائمة ، فدعت بطبق فجعلت تقسم بين الناس ، ثم أمست فقالت : يا جارية .. هاتى فطرى .

فقالت أم ذرة : أما استطعت فيما أنفقت أن تشترى بدرهم لحما تفطرين عليه

قالت عائشة : لو كنت ذكرتينى لفعلت

أفى صدورهم أم فى ظهورهم :

كانت الخنساء فى الجاهلية قد رثت أخاها « صخرا » وهزت الدنيا بالحديث عنه حتى بالغت فى رثائه مبلغا كبيرا حين قالت :

إن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

فلما أسلمت غير الإسلام مفاهيمها وقيمها حتى أنها قدمت فى يوم واحد ، هو يوم القادسية تحرضهم على الشهادة :

أى بنى : إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين ، والله الذى لا إله إلا هو إنكم لبنو رجل واحد كما إنكم بنو امرأة واحدة ما خنت أباكم ، ولا فضحت خالكم ، ولا هجنت حسبكم ، ولا غيرت نسبكم ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون . فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها ، فيمموا وطيسها وجالدوا رئيسها تظفروا بالغنم والكرامة فى دار الخلد والقيامة . أى بنى : اطلبوا الموت توهب لكم الحياة .

فلما انتهت المعركة خرجت تسأل الجموع العائدة فقال لها : إن أبناءك قد قتلوا : قالت : أفى صدورهم ، أم فى ظهورهم ؟

قال قائلهم : بل فى صدورهم .

قالت : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم فى سبيل الله وأرجو ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته .

ما أحد أشبه برسول الله من فاطمة :

قالت عائشة رضى الله عنها :

ما رأيت أحدا من خلق الله أشبه حديثا وكلاما برسول الله من فاطمة ، وكانت إذا دخل عليها قامت إليه ورحبت به ، وأخذت بيده فقبلتها .

فدخلت عليه فى مرضه الذى توفى فيه فأسر إليها فبكت ، ثم أسر إليها فضحكت .

فقلت : كنت أحسب لهذه المرأة فضلا عن النساء فإذا هى واحدة منهن ، بينما هى تبكى ، أو هى تضحك .

فلما توفى رسول الله سألتها فقالت :

– أسر إلىَّ فأخبرنى أنه ميت فى مرضه هذا فبكيت ، ثم أسر إلىَّ أنى أول أهله لحوقا به فضحكت .

قالت أسماء بنت أبى بكر :

لما هاجر أبو بكر مع رسول الله احتمل ماله كله فدخل علينا أبو قحافة وقد ذهب بعده فقال :

– والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه .

قلت : كلا يا أبتاه ، إنه ترك لنا خيرا كثيرا .

قالت : فأخذت أحجارا فوضعتها فى كوة البيت ثم وضعت عليها ثيابا ثم أخذت بيده فقلت :

– يا أبت ضع يدك على هذا المال

فوضع يده عليه فقال : لا بأس ، إن كان ترك هذا فقد أحسن ، وفى هذا بلاغ لكم .

قالت أسماء : لا والله ما ترك لنا شيئا ولكنى أردت أن أسكن الشيخ .

ارجع فعرف عنها :

روى أن رجلا مسلما فقيرا بمكة ، خرج إلى الحرم فوجد كيسا به بعض الدنانير ، ففرح بها ، وعاد إلى زوجته فأخبرها الخبر ، فطلبت إليه أن يعود فيعرف عما وجد بها .

فخرج فسمع مناديا ينادى :

– من وجد كيسا فيه دنانير كذا

قال الرجل : ها هو قد وجدته .

قال الآخر : هو لك ومعه تسعمائة أخرى .

قال:أتهزأ بى ، قال:لا والله ولكن هكذا قال لى رجل من العراق ، قال : خذ هذه الدنانير فاطرح بعضها فى الحرم فإن ردها إليك من وجدها فادع إليه الجميع فإنه أمين ، والأمين يأكل ويتصدق .

شكت امرأة إلى أحد الخلفاء فقالت : يا أمير المؤمنين مات أخى وترك ستمائة دينار فحكم القاضى لى بدينار واحد .

قال الخليفة : هذا نصيبك

قالت: كيف .

قال : إن الرجل ترك ابنتين ووالدة وزوجه واثنى عشر أخا ، فقالت : نعم . قال : فللبنتين الثلثان (أربعمائة) وللوالدة السدس (مائة) وللزوج الثمن (خمسة وسبعون) ولكل أخ ديناران ولك دينار .

إن يك هذا من عند الله يمضه :

قالت عائشة رضى الله عنها :

فضلت على نساء النبى بعشر ، لم ينكح بكرا غيرى ، وأنزل الله براءتى من السماء ، وجاء جبريل بصورتى فى حريرة ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم لعائشة :

أريتك فى المنام مرتين ، أرى أنك فى سرقة من حرير ، ويقال هذه امرأتك . فاكشف عنها فإنما هى أنت .

فأقول : إن يك هذا من عند الله يمضه .

خرجت أعرابية إلى (منى) فقطع بها الطريق فقالت :

– يارب أخذت وأعطيت ، وأنعمت وسلبت ، وكل ذلك منك فضل وعدل ، والذى عظم على الخلائق أمرك ، لابسطت لسانى بمسألة أحد غيرك ، ولا بذلت رغبتى إلا إليك ، يا قرة أعين السائلين أغننى بجود منك أتبحبح به فى فراديس نعمته ، وأتقلب فى رواق نضرته وأغننى من العيلة ، وأسدل على سترك الذى لا تمزقه الرماح ولا تزيله الرياح .

إنك سميع الدعاء .

ابك كالنساء ملكا :

عندما انهزم السلطان أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة أمام ملك أسبانيا (فرديناندو) وسقطت عاصمة ملكه فى قبضة الأسبان عام ١٤٩١ خرج أبو عبد الله مع أسرته ووقف فوق جبل يشرف على المدينة يلقى نظرة أخيرة .

وتساقطت الدموع من عينه .

وكانت أمه عائشة بجانبه فلم تلبث أن قالت له :

ابك كما تبكى النساء ملكا لم تحسن الدفاع عنه كالرجال .

قالت أسماء بنت خارجة الفزارى لابنتها عند الزفاف :

يا بنية : إنك خرجت من العش الذى درجت فيه فصرت إلى فراش لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فكونى له أرضا يكن لك سماء وكونى له مهادا يكن لك عمادا ، وكونى له أمة يكن لك عبدا ، لا تلحى عليه فيقلاك (لا تلجى عليه . فيكرهك) ولا تباعدى عنه فينساك ، إن دنا منك فاقربى منه ، وإن نأى عنك فابعدى عنه . واحفظى أنفه وسمعه وعينه فلا يشمن منك إلا طيبا ، ولا يسمع منك إلا حسنا ولا ينظر إلا جميلا .

وبعـــد ...

فقد عرضت عليك أيها القارىء الكريم فى هذه العجالة جانبا من فكر وعلم بعض رجال سلفنا الصالح ، ملأوا الدنيا علما ونـوراً، وبهروا العالم بكرمهم، وسماحتهم ، وعظيم أعمالهم ، وجليل أخبارهم ، عاشوا حياتهم يجاهدون فى سبيل إعلاء كلمة الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم مضحين من أجلها بأموالهم وأنفسهم وفلذة أكبادهم ، لا يخشون فى الحق لومة لائم ، كبيرهم وصغيرهم ، غنيهم وحقيرهم أمامه سواء لا فرق بين عربى ولا أعجمى إلا بالتقوى.

وقفوا يتحدون المعجزات فما وهنوا وما استكانوا وكتب الله لهم النصر على أعدائهم حتى أصبحت كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، وخلف من بعدهم خلف ورثوا هذا التراث الزاخر وتلك الحضارة المشرقة فكانوا خير خلف لخير سلف .

نسأل الله أن ينفعنا به ، وأن يتقبله خالصا لوجهه الكريم إنه سميع قريب مجيب .

فهرس الموضوعات